رواية

قَوَافِي النَّصْر

عبد القادر قسمية

منشورات الأمير

عبد القادر قسمية

قوارير في النصر

رواية

الطبعة الأولى

منشورات الأمراء 2019

السداسي الثاني : سبتمبر 2019

ردمك : 9789931750017

إسم العمل : قوافـــــي النـــــصر

إسم المؤلف : عبد القادر قسمية

عدد الصفحات : 114 صفحـــــــة

الناشر : منشورات الأمراء ـ للنشر و التوزيع ـ

المدير العام : نادية سلطانـــي

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني و المرئي و المسموع محفوظة للناشر
و غير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر

(213) 656 07 70 78
(213) 36 65 15 54
www.facebook/alumaraa.writif

برج بعدادي الرحوي قسم 215 قطعة رقم 4،
ولاية خنشلة ـ الجزائر
alumaraa@gmail.com

مقدمة المؤلف

قد يستغرق المتصفح لفصل من فصول النضال والكفاح في الجزائر ضد فرنسا الاستعمارية وقتا طويلا حتى يدرك مضامين هذه الملحمة التاريخية، إذ لم يكن اقتلاع مائة واثنان وثلاثون سنة من الاستيطان والاحتلال بالأمر الهين لو لم تتكاثف كل الجهود، بل أبعد من ذلك لا تزال الرواسب اللغوية والسياسية موجودة إلى الآن.. كلها تحت سقف مخلفات الاستعمار الذي عثا ظلما على أرض الجزائر.

ضمن هذا الجو العام، تحتفظ الذاكرة التاريخية للناس عموما في الجزائر على مختلف أعمارهم حتى وإن لم يعيشوا تفاصيلها بأمرين هامين يغذيان بشكل دائم الروح الوطنية ويستحضرونها كلما رفرف العلم الوطني صباح كل يوم، الجانب الأول يتعلق ببطولات وقصص من ضحوا لأجل الوطن فهم ختم الفخر والاعتزاز الدائم والجانب الثاني هي تلك الوقائع والمجازر التي اقترفتها الآلة الاستعمارية عبر حِقَبات زمنية مختلفة دونت مواكبا طويلة من الشهداء الذين تخطوا الملايين.. ظلّ ذكرهم حي يرزق في نفوس الأجيال.

من الصفحات المضيئة أيضا التي صنعت مجد العقود الأخيرة لحرب التحرير، هو ذلك الشاعر المُسعر لثورتها وقائد نضالها القلمي.. المتيم بأرض بلاده، نظم نشيدها وبقي مرهف الحس تجاهها فلم يُغرم بسواها، ناضل بفكره وماله وجهده وضحى بما يملك في سبيل نيل استقلالها وبقي وفيا في حبها إلى آخر أيامه.

بطل الرواية أُعطي الفصاحة والنباهة منذ صغره، عرف كيف يغرف من تعلميه الديني وحفظه الكامل للقرآن الكريم لصوغ ما يجول بخاطره فأجاد في نحت أبياته وجمع الناس من حوله خدمة لقضية وطنه، كان مستقل بذاته واسع المدارك والإبداع على امتداد الجغرافيا العربية.. وحدوي في أفكاره، ضل متمسكا بمبادئه إلى يوم مماته، كان شعره يُدون كما ينطقه لفظا متفاعلا مع قصائده، عميقا في رسم كلماته متأثرا بصدق تلك اللحظات من أيامه. ذلك هو شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا.

أنا ابن الجزائر ... من أمـة ... على دمها، تصعد الرابيه
على ذوْبِ أكبادها، ترتقي ... وفوق جماجمها، ماضيَـه
غدوتُ، لثورتها، شاعـرا ... من النار والنور، ألحانيَـه
فلسطين ... في صلبنا، لَحمةٌ ... جراحاتها، في الحشى، ثاويه
عروبتنا، في ضمير البقـاَ ... وشائجُ، راسخةٌ، راسيه
فلسطين ... في أرضنا، بعثُها ... ومن أرضنا تزحف الحاميه
ومن أرضنا... نقطة الإنطلاق ... وثورتنا ... حَجرُ الزاويه
وفي نكبة العرب، موعظةٌ ... مدى الدهر- للمهج الواعيه
فتَمُدّوا يداً، نحمِ أوطاننا ... وننقذْ حمانا، من الهاويه
فإن تنصروا الله ينصركمُ ... وينجزْ، أمانيكُمُ الغاليه
ولن يخلفَ الله، ميعادَه ... ولا ريب ... ساعتنا، آتيه... [1]

(1) : أبيات من قصيدة " فلسطين على الصليب" من ديوان اللهب المقدس.

القسم الأول

مدخل

صيف 1977...مقبرة الشيخ بامحمد على أطراف ...قصر بني يزقن /غرداية [1]

توزع جموع المشيعين في أرجاء مقبرة قصر بني يزقن [2] الكل ينتظر وصول جثمانه، البعض يتفقد أقاربه ويقرأ فاتحة الكتاب وآخرون تجمعوا في صمت على أطراف امتداد ظل بوابة المقبرة، رغم حرارة الشمس وعطش الصيام لكن أعداد سكان البلدة ظل يتزايد، الكل أتى ولبّى نداء الروح، فقط من كانوا معه أيام النضال تخلف بعضهم أو لم يأتي الكثير منهم.

وصل نعش الفقيد من البلد التي فُطم فيها عقله أين صعدت روحه هناك في سماء تونس، لكنها اليوم بين محبيه أيضا تطوف بين أرجاء تلك القصور التي تعرفه جيدا وستعانق حبات تراب الأرض التي دافع عنها كثيرا بطريقته ووفقا منهاجه، على امتداد مساحة هذا الوطن وتنوعه.

يتقدم خطيب المسجد ويستذكر بعض من مآثر الفقيد التي لا تُحصى ولا تعد..

" ...خيركم أنفعكم للناس صدق خير خلق الله النبي الأكرم صلوات الله عليه وعلى آله، يا إخوان إن العين لتدمع والقلب ليحزن في هذا المقام الجلل في هذا الشهر المبارك ونحن نودع رجلا مناضلا ومجاهدا بما أوتي فقد نفع الناس بفكره ونور كلامه...."

(1) غرداية : هي مدينة جزائرية تبعد مسافة 600 كلم جنوب العاصمة تحوي نقوشا بربرية على الصخور والتي تعود إلى 3 آلاف سنة قبل الميلاد

(2) قصر بني يزقن: أو باللهجة المزابية الامازيغية (آت إيزجن) واحد من القصور السبعة في مدينة غرداية أسس في القرن الرابع عشر ميلادي.

كل الوجوه في تلك المقبرة تتقاسم تعابير الحزن وكأن مشهد حجة الوداع الراسخ في الوجدان يستحضره الناس بفقدان كل عزيز، وحده الطفل مُنتصر لم يهدأ وظل ممسكا ببرنس جده الأبيض الشيخ حمودة وهو يسأل عن هذا المكان ويكرر سؤال آخر دون جواب..

جدي لما كل هؤلاء الناس؟ لما يقفون هنا، هل هي عائلته؟ أخبرني.

حاول أن يقوم الشيخ حمودة بمعية عصا الخيزران رغم تغاضيه في البداية عن إلحاح حفيده فهو يكسر لحظة الخشوع وعظمة المصاب بسؤاله فالعقول الآن كلها هائمة تتجه نحو مكان واحد علوي في السماء. اتكأ على الخيزران والحائط معا وهو يخاطب حفيده.. *اهدأ سوف أخبرك بعد إتمام الصلاة حين نغادر.. هيا بنا الآن نتقدم.. ساعدني يا بني، كلنا عائلته.*

تثاقلت خطوات من أتوا للصلاة على روحه وكأن الناس لا تريد أن يغادرها شخصا لا يشبهه أحد.

هي واقعة الموت وموعد الدفن على وجه الخصوص قد يتوقف العقل عند البعض أحيانا ولا يصدقها، المشاعر تتغلب على صاحبها فلا يشعر بشيء.

أتم الخطيب المؤبن كلامه الذي أدرك انه لا ينتهي فالساعات إن طالت لا تستوفي مقام من ودعوه، في تلك الأثناء كان الجد حمودة قد استطاع ضبط مشيته والتحكم في قدميه فالعمر إن بلغ عتيا أرذل صاحبه وبعد أن وري الفقيد الثرى اخذ الطفل مُنتصر بيد جده متوجها به إلى بوابة المقبرة مرددا دون توقف..

جدي أريد سماعك الآن، وعدتني أن تخبرني عن هؤلاء الناس ومن دفن ولما بقوا في الداخل؟

حسنا يا بني.. أمهلني قليلا أريد أن أحيي بعض الناس قبل أن نسافر... فلقد مضى وقت طويل ولم أراهم، لعلي لا التقي بهم مرة أخرى... في هذا المكان الكل يستذكر موعدا مؤجلا....

على مقربة من البوابة بقي الطفل مُنتصر يراقب وجوه الوافدين حتى بعد انقضاء الدفن.. الكل كان يريد أن يقترب ويحظى بشرف المشاهدة وإن كان تحت التراب...

ها قد عدت يا مُنتصر، مخاطبا الجد حفيده.. سوف أخبرك كما وعدتك وأجيبك عن كافة الأسئلة التي تدور في ذهنك.. اسمع، هؤلاء الناس هم أبناء هذه المدينة والقصور المجاورة والمحبين الذين لا نعرفهم وقد جمعهم ثواب الصلاة وحب من جاؤوا لتوديعه مثلما رافقتني أنت من العاصمة إلى هنا ومعنا السائق عمار، فمن دفن اليوم هو من خيرة أبناء هذه الأرض البارين المخلصين، كل يوم في حياته كان استثنائيا..

أنت تعرفه إذا؟ *سأل الطفل مُنتصر مقاطعا جده ببراءة وقد تغيرت ملامحه فبدا حزينا وكأنه يريد أنه يقول له أنا حزين لحزنك.*

رد مسرعا يحاول أن يذهب الحزن عنه ...نعم ولأجل هذا الأمر أتيت رفقة حفيدي الشجاع كل هذه المسافة ولقد قلت لك البارحة ذلك ربما تكون قد نمت أو سرحت بعيدا في جمال الطبيعة فهذه هوايتك المفضلة.. المهم سوف أخبرك كل شيء عن من ودعناه وسأحاول أن أتذكر كل ما سمعته أو شاهدته عن هذا الرجل العظيم، كنت أكبره بسنوات قليلة ... التقيت به مرتين فقط في سجن الاحتلال...ذكره وافر الفوائد فأصغي إلي جيدا.. هيا الآن اصعد إلى السيارة سوف نعود إلى العاصمة، المسافة طويلة جدا كما تعلم وسأخبرك كل شيء عن زكري بن الشيخ أو مفدي زكريا، رحمة الله عليه...

مدينة غرداية / جنوب الجزائر 1908

هذه السنة تختلف عن ذي قبل، ينتظر الحاج سُليمان فرحة مولودا جديدا كيف ما كان، فإن وُهب ذكرا سيكون سندا له في تجارته هكذا كان يقول ويردد وهكذا هي العادات والتقاليد في المنطقة وإن كانت أنثى فهي سند لوالدتها في شؤون بيتها وركيزة أساسية في العائلة يُعتمد عليها.

كان الحاج سُليمان واقفا بمحاذاة عتبة محله يترقب ويسأل عيون الوافدين الذين مروا من جوار بيته فمن لديه الخبر اليقين يخبره حتما، تعود أن يكون بعيدا ولو لأمتار في مثل هذه الظروف فهذا التاجر الشاطر يحمل قلبا معلقا بأسرته يتركه لديهم عند أسفاره وأعماله.... تجارته تستوجب عليه أن يتنقل، بعد لحظات انتهى ذلك الانتظار.. اسمه سبق مولده.. كان ذكرا.. وحمل اسما جميلا.. كان زكريا.

في سوق المدينة.. أين أصوات الباعة والوافدين تتعالى وتتداخل، وحده السي [1] المنور والمعروف بنبرة صوته الحادة وقد امتزج الفرح فيها هذه المرة. أقبل كبقية من يعرفهم الحاج سليمان وهو يهنئ من بعيد ... مبارك عليك ما جاءك يا حاج.. بإذن الله سوف يكون ابن صالح يشرفك ويدعو لك.

بارك الله فيه يا سي المنور والله الأبناء اسم على مسمى.. زينة هذه الدنيا.. حفظ الله لك أبناءك، أشكرك أنك أتيت لأني كنت قادم إليك لأدعوك الليلة لصدقة إطعام على نية قدوم المولود زكري الذي أكرمنا الله به.. لا تنسى...تفضل.

بارك الله فيك، إن شاء الله سوف أزورك الليلة وتكون صدقة مقبولة ومباركة بحوله تعالى، سوف يكبر زكري ويساعدك رفقة أخيه.. المهم قل لي كيف أحوال تجارتك وهل تأثرت هي أيضا؟ مشاغل الزراعة أبعدتني عن أخبار السوق.

(1) السي: وهي كلمة محلية اختصار لكلمة السيد ودلالتها التقدير عند ذكر اسم الشخص.

أخ ...عن ماذا أخبرك، عن الأنفاس التي تُحسب وتنقطع كل يوم ظلما تحت سلطة هذا العدو، كيف للتجارة أن تتحرك وتزدهر... الحمد لله لا تزال هنالك أماكن كبرى أفضل نوعا ما وأوسع، السفر إليها أصبح ضرورة لكن ليس في الوقت الراهن.

كلامك صحيح، التوجه إلى المدن الكبرى أضحى أمرا ضروريا فالمستعمر يضيق معابر التجارة كثيرا وذلك لحاجة خسيسة في نفسه الدنيئة.

أحسنت القول هذا العدو يريد لذراع التُجار والأهالي للانصياع لأوامره ودفعهم للولاء له طوعا أو كراهية، لكن هيهات له من ذلك.. وكل ما يقوم به سراب، لابد أن تنجلي هذه الغمة يوم ما يا سي المنَور.

إن شاء الله ...وأين ستكون وجهتك يا حاج؟ ولما ليس الآن؟

إن سافرت الآن سأغيب طويلا وما أريده في هذه الأيام فقط أن أرى ابني زكري يكبر أمامي وبعد أن يشتد عوده سآخذه معي تاجرا وأشركه في أمري، لقد نويت السفر إلى أقصى الشرق إلى مدينة عنابة هنالك سوق التجارة مزدهرة جدا.

أها.. قد سمعت عن تلك المدينة، من الجميل أن يرافقك ولكن يجب ألا يفرط في علمه ويكبر تاجرا منفتح الفكر أيضا.

صدقت وهذا ما سأفعله، العلم مرادف للمعرفة وإدراكه إدراك للحقيقة وابتعاد عن الجهل ولما لا يتزود بعلوم أخرى في حواضر تزدهر فيها المعرفة ..أتمنى أن يوفقني الله في تحقيق ذلك.

بإذنه تعالى.. له مني كل الدعاء بالتوفيق في حياته ويجعل الله له نورا يستنير به في دربه، استأذنك الآن يا حاج فلقد أتى من كنت انتظره.

.. في رعاية الله أخي المنور، رافقتك السلامة .... لا تنسى وليمة الليلة..... يا رب يأتي يوم ويراك الناس يا بني زكري ناجحا مستبشرا بالفرح والخير كله في حياتك وتعيش مرتاح البال في هذه البلاد وتكون حرة لشعبها فقط.

قارب وجود المستعمر الفرنسي في ارض الجزائر مستوطنا ومحتلا للأرض والبشر المائة عام، جرب كل أنواع السياسات لجعلها مقاطعة فرنسية، حرق ونهب الخيرات وحصد الأرواح دون تميز وبشتى الأساليب لكن فكرة المقاومة لم ينطفئ

لهيبها في وجدان الناس فكانت تندلع المجابهة على شكل مقاومات شعبية في مكان ثم تنتقل إلى مكان آخر تلحق الأضرار وتكتسب خبرة القتال فالجغرافيا كانت واسعة أمام الغزاة الذين لم يهنؤوا أمام عقيدة تدرك أنها على حق في استرجاع الحق.

كانت التجارة إلى جانب المقاومة نوع أخر من الصمود في المناطق والتشبث بالأرض والدفاع عنها، كانت هذه أيضا ميزة المزابيين [1] في غرداية وأسلوبا للحياة فلقد اختصوا بفن التجارة عن غيرهم فالمنطقة أضحت مركزا اقتصاديا مهم يتوسط الصحراء ويوازيه في ذلك منهجية خاصة في التعليم تعتمد أساسا على ضرورة حصول الناشئة على القسط الضروري من قواعد العلوم ومفاتيحه على أيدي مشايخ المنطقة أولا والتشبع بخصائص الحياة الدينية والاجتماعية لأجل الحفاظ على الموروث الإباضي.

محضرة [2] القرآن الكريم في بني يزقن كانت الوجهة الأساسية للطفل زكريا كان يعلو الشيخ إبراهيم تلامذته وهو جالس متربعا وقد اختفت أقدمه.. تلاميذه الذين اكتمل عددهم بشكل دائري جمعهم لون عباءاتهم الأبيض والطاقية المثقبة التي يضعونها على رؤوسهم وهو يدرس ثم يعيد ويكرر على المسامع ما قاله تحت سقف السماء لان المعرفة تكتسب بالتكرار وملكة الحفظ السريع.

ها قد اقبل بني زكري.. تبارك الله، والله أنك من خيرة التلاميذ عندي، تجيد الحفظ وقراءتك سليمة وقاربت ختم القرآن الكريم عليك أن تستمر في هذا المستوى.

(1) المزابيين: أو بني ميزاب مجموعة عرقية تنتمي إلى قبائل زناتة الأمازيغية الذين يمثلون السكان الأصليين لشمال إفريقيا , يعتنقون الدين الإسلامي على المذهب الإباضي, يعود تواجدهم إلى العصر الحجري القديم

(2) محضرة: وهو وصف لمكان تدريس القرآن الكريم وعلوم الفقه بطريقة وأدوات تقليدية قديمة ويسمى بالكُتاب أيضا

السلام عليكم شيخنا.

وعليك السلام يا بني زكري.

والله كل الشكر والعرفان لك والفضل يعود إليك، كنت أود أن أُسمعك شرح بعض المسائل الفقهية ومحاولات شعرية عن خير الخلق في البشرية نبينا المصطفى صلوات الله عليه وعلى آله.

عليه الصلاة والسلام، تفضل بالجلوس.. أخبرني أولا كيف حال والدك؟

حفاوة الاستقبال كانت توقيتا يوميا يستحقه الطفل زكري وذلك لاجتهاده في كسب العلم وإجادة الحفظ لكنه لم يكن يبدي ذلك الاعتزاز أمام أقرانه حين

يلعب معهم في أوقات فراغه.. كان التواضع يكبر معه.

كانت ردود زكري متقنة لدرجة أن يُخيل للبعض انه يعرف السؤال قبل أن يسأل.. حدس الشاعر في جوفه يلتقط فيعبر بشكل سليم..

بخير والحمد لله، اقضي معه فترة المساء تاجرا صغيرا مثلما يقول.

أنت ابن بار يا زكري ويُعتمد عليك في كل شيء، أما عن رغبتك في الشرح أمامي وسماع ما كتبت من أبيات عطرة أرى أنك تعبت اليوم وها أنت تعود إلى هنا للمرة الثانية وتستحق قسطا من الراحة، اترك ما في يدك الآن وسأقوم بتصحيحها وقراءتها مساءا وسنناقشها غدا سويا.. اتفقنا؟

وهو كذلك.. لكني لم اتعب أبدا يا شيخ إبراهيم.. واعتذر أني قد أتيت في وقت غير مخصص لي، ذلك لأني أحب اللغة العربية واستعذب قواعدها ونظم ما تيسر من الأبيات منها ولا أكل ولا أمل أبدا.

اسعد بوجودك آي وقت وكلامك جميل يا بني أحسنت، أن تتحدث هكذا في هذا العمر الصغير ولم تتجاوز سن العاشرة فهذه إشارة نبوغ ومعرفة لكن عليك أن ترتاح أيضا.. فسحة الراحة تقوي العقل وتعيد النشاط إلى سائر الجسد.. بلغ والدك السلام ونتحدث غدا في كل المسائل أيها الشيخ الصغير.

هاه.. شكرا لك، سعدت كثيرا بكلامك سأبلغ الحاج تحياتك...تحياتي لكم جميعا أصدقائي...السلام عليكم.

كان زكريا لا يشبه أقرانه، يطالع كثيرا حتى عند مساعدته لوالده في محل تجارته، يدون بخطه البسيط كل معلومة جديدة يسمعها أو يقرأها وكأنه كان يراكم زاد معارفه ليوم غير معلوم، هذا النشاط الفكري والمعرفي جعل السعادة تغمره في كل مرة يلقى فيها الإشادة فيحرص أكثر على إسعاد من حوله بتفوقه الدائم.

.. لقد أسعدت قلبي كثيرا يا بني... وها قد قمت بصحة وعافية.

أهلا بك أمي، ما كان عليك أن تقومي من فراشك.

كنت أسمعك ترتل صغار السور وكأني اسمعها لأول مرة.. ما أعذب صوتك.

خجل زكري من مدح والدته وأقبل إليها معانقا ومشتاقا لها وكأن لسان حاله يقول.. أنا بضع منك ومنك أيضا استمد قوتي.

لكن أيام فرح الابن البار كانت معدودة والحزن تربص به ودق باب قلبه الصغير بفقدان والدته بعد أن أعياها المرض.

كانت الأيام بما تحوي من ساعات ولحظات قد تخلت عن سرعتها وحركتها وكأن كل شيء توقف في حياة زكري الصغير.. أحس بغربة بفقد من يحب، كان حزينا، صورة والدته لا تفارقه.. يزور قبرها ويحكي لها لوعة الفراق.

أحس الوالد بوجع ابنه فقد قل حديثه ربما نذر لفقد والدته صوما عن الكلام.. كان الحاج سليمان يعرف أين يذهب كل مساء.. لحقه هذه المرة وفي حضرة ذلك المكان بجوار قبر والدته أستطاع الطفل زكري أن يتحدث ويصف حاله ويفرج عن ما يجول في وجدانه لكن الأبوة أرادت أن تستدعي روح ذلك الطفل المتفوق الذي كان يملأ الأرجاء فرحا وينفرد به بدلا من الحزن القاتل..

يا ولدي زكري عهدتك قويا وعندما تتحدث.. الجميع ينصت إليك رغم صغر سنك.. ما بالك قد استسلمت للحزن وقل حديثك وأراك كل ليلة تنظر إلى السماء مطولا.. ولا تخبر أحد على ما يجول بخاطرك، إني أدرك وجع الفراق وأتقاسمه معك أيضا.

الحزن منفذ لا بد منه، لقد أتعبني يا أبي لكنه وحده يوصلني بمن فقدت أما زينة السماء أرى فيها وجه أمي كل ليلة تضيء كالبدر ويبتسم ثغرها حين تتلألأ تلك

النجوم فتجعلني أرى وجهها الضحوك وهذا ما يؤنس وحشتي.. لقد آلمني فقدها.

ياه.. ما حسبتك هكذا يا بني، ما أروع وصفك. يُخيل لي أنك شابا قد بلغت من العمر سنين وعشت تجارب طويلة، المهم هذا أمر الله وقدره.. وما علينا إلا التسليم به، يجب أن تدرس يا زكري وتنطلق في الحياة ...هكذا والدتك العزيزة سوف تزورك كل ليلة وتفرح لتفوقك...اتفقنا؟

اتفقنا... لا تقلق يا أبي سأفرحها كثيرا

استطاع الحاج سليمان أن يُحيي البهجة في نفس ولده الصغير ويذكره أن النجاح تعبير محبة أيضا وهدية لمن نحبهم.. لكن زكري كان وفيا في تعبيره وأكمل تصديقًا على كلام والده ومفاخرا بفضله عليه...

لا تنسى يا أبي أني أتعلم منك أشيا كثيرا في المحل وهذا يعد تعليما أيضا لك الفضل فيه...لك جزيل الشكر.

بارك الله فيك يا بني شيخ زكري.. بالله عليك قل لي كم عمرك هاه؟ إني فخور بك جدا ...هيا لنذهب كي تنام وترتاح، غدا سيكون يوما طويلا وشاقا بعض الشيء.

تمر السنوات والطفل زكريا لم يفرط في الاطلاع على ما توفر له من كتب والمواظبة على قراءتها ولا على حرفة الأجداد رفقة والده فقد كان يساعده في التجارة ويتعلم دروبها في رحلة أخذته بعيدا عن مدينته إلى أقصى الشمال الشرقي من ارض الجزائر.. مدينة عنابة الساحرة أين فضاء التجارة أوسع.

كان قلب زكريا يتراقص طربا كلما رأى كُتبا.. يتقدم إليها مسرعا وكأن قوة خفية تشده نحوها..

سي محمد.. السلام عليكم، بكم هذه الكتب؟ سأل زكري بائعا متجولا يحمل مجموعة من الكتب بالصدفة اختلطت مع قُفف من الحلفاء وبعض ما تيسر من منتجات يدوية وأخرى بالية.

كان البائع يود التخلص من هذه الأعباء الورقية المحكمة بشريط من الحلفاء هي أيضا فأخذ ما توفر من مبلغ زهيد في جيب زكري وعاد إلى والده يحمل رزمة كتب

هي قوت فكره ومبلغ سعادته...رآه الحاج سليمان وقد اختفى نصف وجهه بما يحمل وسأله من أين لك كل هذه الكتب؟

هذه مجموعة حصلت عليها صدفة وسوف أتم قراءتها فترة إقامتنا هنا.

أخبرني قبل ذلك من أين حصلت عليها؟

صفقة تجارية بين تاجر شاطر يشبه والده وبائع متجول قد أعياه الضجر من رؤية حمولته التي لا تنفذ.

هاه. أحسنت صنعا يا بني فالعلم لا يقدر بثمن والكتب من المؤكد أنها نافذة على عوالم كثيرة.. أرني ما فحوى كل هذه الحمولة.

كانت التجارة تستنفذ وقت زكري فيسترق من بعضها وقتا للدراسة والمطالعة لكن أحوال الإقامة في مدينة عنابة لم تطول كثيرا إلى أن جاءت فرصة أخرى حملته إلى تجربة دراسية جديدة، عالم آخر كان يستشعر باقترابه كل لحظة حين يحدث نفسه عن مستقبله.. كانت منحة تعليمية ضمن بعثة علمية خاصة أضحت نقطة تحول أساسية في حياته.

فصل الشتاء قد أعلن نهاية أيامه، ساعات اليوم قد زاد نورها وهذا أمر محبب لزكري الصغير، بزوغ الشمس بداية كل يوم في فصل الربيع له رونق خاص إذ يشعره بدفء الروح وعودتها إلى سائر الجماد فتتزين... في ذلك الصباح الجميل نسي الحاج سليمان أن يلبس حذاءه من شدة الفرح وقد خرج إلى الساحة المحاذية للبيت والتي تتوسطها نافورة كبيرة أين كان زكري يطالع ما اقتناه من كتب.. ناداه من بعيد وهو مقبل إليه

يا قرة عيني زكري...يا زكري.. ملوحا بيده؟

تفاجأ زكري بنداء والده ورآه حافيا فترك تلك الكتب الأقرب إلى قلبه الذي كان يرتجف خوفا من حزن أخر قد اقبل عليهم.. لكن ما إن اقترب منه الحاج سليمان حتى فتح له ذراعيه وعيونه تبتسم فرحا ...في تلك اللحظة زالت غيمة الشك المفزع من رأس زكري فابتسامة والده دليل خير.

قال الوالد وقد أعيته تلك الخطوات المهرولة..*أريد أن أشكرك من الآن.. لأن الله بعثك لي هدية كي افتخر بك أمام الملأ.*

أجاب زكري دون تفكير ... *لقد قمت بواجبي فقط وأتممت ترتيب ما طلبت.*

إنسى أمر التجارة الآن، اجلس أريد أن أخبرك أمرا بالغ الأهمية.

هنا؟؟ أنت حافي القدمين أبي.

هاه لم انتبه.. إذا هيا بنا إلى البيت كي أخبرك بكل التفاصيل...

خطوات قليلة كانت نحو ذلك الباب الخشبي الذي يحمل تاريخا عريقا يتوسطه هلال معدني أضاف جمالا وحسنا كبيرين.. ابتسامة الوالد وهو ينظر إلى زكري وإلى قدميه الحافيتين بقيت إلى حين غلق ذلك الباب.

سوف تساعدني يا بني في جمع متاعك ودون كل ما ينقصك في هذه الورقة.

سنعود إلى غرداية؟ رد زكري مستغربا!

لا لا.. أبدا، غرداية سنعود إليها يوما ما ...أبشر يا بني فلقد تم اختيارك ضمن البعثة الجزائرية المزايبة المتوجهة إلى تونس وسوف تمكث في بيت عمك الشيخ صالح وتدرس مرتاح البال والخاطر...ما رأيك بهذه المفاجأة؟

صحيح؟ أنا موافق بطبيعة الحال على الفور، متى الآن؟

ارتبك زكري وامتزج الفرح عنده بمعالم الحزن التي بدت على وجهه فقد أراد أن يغمر والدته في تلك اللحظة.. فهي لم تعد موجودة. عانق والده ضعفين فهو الأهل كلهم مجتمعين فيه.

ما ارق قلبك يا ولدي، لكن عليك أن تهدأ سيكون لك ذلك في الأيام القليلة القادمة بحول الله تعالى الذي وفقنا في هذا الأمر، كما أن الفضل يعود أيضا لمن سعى لك في تيسير الأمور ووافقت على هذا المقترح التعليمي الذي انتظره بفراغ الصبر دون تردد.. وسيكون لك رفاق ممن سبقوك في هذه البعثة العلمية ...إنك كما قال عنك معلمك الشيخ إبراهيم لا تشبه أحد وأعطيت فصاحة اللسان وكلامك وأسئلتك تتخطى عمرك الصغير آن الأوان أن تبحر في دروب العلم.

يا له من خبر مفرح يا أبي.. أشكرك واشكر أخي.. دعني اقبل رأسك مرة أخرى.. كنت في المحضرة اسمع عن البعثة ومزاياها وتمنيت حدوثها كثيرا وها قد تيسرت الأمور فيها.

الحمد لله يا بني علينا أن نشكر الله على تيسير الأمور.. اسمع جيدا لا شرف كالعلم وعليك أن تقتدي بمن سبقوك في البعثة كالشاب أبو اليقظان.. الكل يتحدث عن نبوغه، يجب أن تعي أن هذا المستعمر يطمس كل مكان يشع بنور الفكر والتدبر في الجزائر فما حدث للمدرسة الصديقية القرآنية ليس بعيدا من هنا في مدينة تبسة هو الطغيان بعينه فقد أغلقها العدو عنوة وأطفأ منارتها وهذا دليل أن المحتل للأرض يخشى أن تستنير العقول، اجتهد وثابر.. احرص يا بني على أن تجعل من عقلك سبيلا تنير فيه عقول الناس ما استطعت.

إن شاء الله، أعدك بذلك أبي وأعد أمي أيضا.

رحمة الله عليها هي فخورة بك دائما وإني أثق بكلامك يا بني الصغير، المهم ها قد تحقق حلمك، علينا أن نرتب الأمور وتنطلق رفقة زملائك.

تونس ...بداية الطريق

كانت الأوضاع في تونس أكثر استقرارا حيث شهدت نهضة فكرية وأجواء تعليمية هامة استقطبت العديد من الطلاب الجزائريين في بداية القرن العشرين والذين بدورهم كانوا يعودون بعد إتمام دراستهم إلى مُدنهم وقراهم لتعليم أبناء بلداتهم وتنوير فكرهم في تحدي صريح لغطرسة المستعمر الفرنسي المستميت في محو هويتهم وإبعادهم عن لغتهم الأم، فعمد على وضعهم تحت المراقبة حال وصولهم.. متربصا بهم ومتخوفا من تأثيرهم.

لم يكن بيت الشيخ صالح بن يحي كباقي البيوت في تونس فلقد كان نقطة التقاء أهل الفكر والسياسة والأدب ومركز التخطيط والاجتماع للحزب الدستوري التونسي ما جعل زكريا قريبا من الأحداث.. يسمعها ويتفاعل مع تفاصيلها كل ليلة.

لعل الشاي قد جعلك مستيقظا إلى هذه ساعة يا زكري.. عليك أن تنم كي تستيقظ باكرا.

أهلا سيدي صالح (مقبلا يده تقديرا).. لا كنت أفكر في كلام ليلة أمس ووجدته مشروع قوة وممر ضروري لتغير الواقع.

عن أي كلام تتحدث يا زكري؟

عن وحدة المغرب الكبير الضرورية أمام ظلم الاستعمار الذي بلغ حدودا أضحت لا تطاق في الجزائر وهنا في تونس وفي المغرب أيضا الأمور لا تسري إلا وفق إدارة هذا المستعمر وإن كانت في بلدنا الوضع متأزم أكثر فقد وضعت فرنسا كل جيوشها ومن معهم من المستوطنين أيضا من كافة الأعراق وفي النهاية سوف يبقى الوضع على ما هو عليه دون أن نحكم أنفسنا بأنفسنا إن بقينا هكذا.

اجل يا زكري لقد أصبح واقعا ولكن لا محال أن يزول هذا الظلم ويقتلع من جذوره التي تغلغلت خاصة في وطننا الجزائر وإن طال الزمن.. اعلم أن فكرة المغرب الكبير موجودة في النفوس عند الكثيرين وإن غاب التعبير باللفظ أو تأخر الفعل لكنها مطلب كل نفس تسعى ليعم الخير الجميع ..... هل تعلم أن من الأشياء التي تميزك يا شيخ زكري عن غيرك أن كلامك يدل على نُضج ألحظه بشكل يومي وما استئذانك البارحة في الحديث إلا دليل على نُبلك.

خجل زكري كعادته وبنبله عند كل كلام إطراء ومدح يستحقه وبقي للحظة ينظر إلى الأوراق التي أمامه ثم شكر عمه على دعمه ونصحه دوما واتبع كلامه .... *كنت أود أن أخبرك أني قد كتبت قصيدة من وحي حديث المساء فكل ما قيل مؤمن به جدا وقد أسميتها (قالها بعمق وتروي شديد).. تنبيه النيام.. من بني الإسلام.. حاولت أن أكون فيها واعظا..*

جميل جدا.. والله يا بني كل كتابتك على بساطتها لا أرى فيها محاولات فقط ولكنها مبنية بإحكام وتصيب في الصميم، يجب أن نسمعها سهرة الليلة حين يكتمل الوفد..

أشكرك.. على الرحب والسرور يسعدني ذلك واشعر أني محظوظ بتواجدي هنا.. فرصة أيضا أن اطرح فكرة على الحضور.

سيكون لك ذلك بحول الله.. أنت صادق في كلامك لأنه ينبع من قلب طاهر طيب وأعول على نبوغك يا ابن أخي.

لك جزيل الشكر والعرفان عماه.. آمل أن أكون عند حسن ظنك بي.

ازداد نشاط زكريا الأدبي وتنقل طالبا للعلم في تونس بين مدرسة السلام ثم الخلدونية ثم تدرج وصولا إلى جامع الزيتونة أين اكتملت مشارب العلم عنده وتنوعت بين العلوم والترجمة، كان مولعا بمجالس الفكر ومطلعا على ما يصل من الضفة الأخرى من بلاد المشرق ولا يفوت أمرا ثقافيا وفكريا إلا وأحاط به.

كان يهوى العلوم ويدق بابها كلما أتيحت له الفرصة لذلك، رافق ريشته وأوراقه وصورة والدته التي كانت مشجعة وشاهدة بطيف روحها على تدرج مستوى زكري وتسارع درجات نبوغه فاتخذ من رسم الكلام وتلوين المعاني سبيلا للتعبير وترجمانا لما في ضميره.

الطريق إلى جامع الزيتونة كان أقدس الخطوات التي يقطعها زكري نحو خلوة العلم والمعرفة فمن هنالك يتمم ما يحتاج من العلوم فالمنابع عديدة والسعي لها لم يكن يضنيه أبدا.

ككل صباح يتقاطع زكري مع صديقه رمضان على بعد ثلاثة مباني عتيقة ضاقت زواريبها، كانت تفوح مسالكها بعبق التاريخ الممزوج بنقوش معمارية تشعرك

بجهد الفنان الذي أبدع في نحتها.. أمر جديد قد حدث يُذكر رمضان به زكريا بعد التحية... الكل أصبح يناديك مفدي يا زكريا انه اسم مميز.

فعلا؟ هو صديقنا بوجناح من أسماني بمفدي وصفا للفدا وقد أطلقت عليه هو أيضا اسما وكان الفرقد وكذلك أستاذنا الشيخ بوشناق أخذا يردد اسم مفدي أظن قد أعجبه وأخذ ينادي به طيلة الوقت ونسي زكري، لا أدرى ولكن أرى انه جميل، يصلح أيضا أن يكون توقيعا لقصيدة أو أي شيء اكتبه.

دائما تجد الحلول المناسبة، هنالك سؤال يحيرني.. متى تدرس؟ أراك طيلة الوقت مولعا بالشعر والأدب وجمع الكتب وعند النتائج تكون علاماتك الأكثر تفوقا وأشعارك تحمل جودة المضمون أيضا.. أريد معرفة خلطتك السحرية هذه؟

خلطة سحرية هاه.. هي فعلا خلطة جميلة، ما اعرفه عن نفسي أن كل ما يُشرح أثناء الدرس يبقى في ذاكرتي واحتاج دقائق معدودة لمراجعته قبل الامتحان وقضي الأمر.. أما عن الشعر والأدب يا أخي رمضان فهما بوح النفس الإنسانية واخراج مكنونها من العقل بكل صدق وبما أنك تتحدث عن هذا الأمر صديقي سأسعى أن يكون قلمي هذا تفكيري الناطق وأكون نصير المستضعفين في نيل الحقوق ما استطعت.

دون أدنى شك سوف يكون ذلك يا مفدي، البارحة سررت كثيرا وحتى الأستاذ بوشناق وكل الطلبة وأنت تتحدث عن تاريخ بلادنا وكيف أن الكل في الجزائر من شماله إلى جنوبه هب لدفع غزو الفرنسيين من ميناء سيدي فرج في أول يوم للمعركة منذ مائة عام تقريبا.

إنها الحقيقة.. نبذ المستعمر يسري في عروقنا ولقد خُلقنا أحرار ولا نموت غير ذلك والكل ينتظر شرارة واحدة لهبة كبرى لطرد هذا العدو، آمل أن لا تطول يا أخي رمضان.

من أين لك كل هذا يا سي مفدي؟ والله إنك لتقوي العزائم بحديثك ...لم أراك تتحدث عن نفسك يوما.

ها قد أصبحت تناديني أنت أيضا بمفدى وقد قلتها مرتين ... أحيانا لا احضر الكلام بل تستحضره اللحظة وصدق النفس فهذا هو الجوهر والأساس، ربما هو

شعور يتقاسمه الجميع في ارض المغرب الكبير لكن تختلف التعابير وقد يعجز آخرون عن شرح وجدانهم تجاه أوطانهم وتتحدث عنهم أفعالهم هذا ما حدثني به عمي الشيخ صالح ذات يوم، المهم أننا نلتقي في محصلة واحدة.. التطلع للحرية، شكرا لك على كلامك ومرة أخرى أحببت اسم مفدي وسأكون من اليوم فصاعدا أخوكم مفدي زكريا.

هاه تشرفنا بذلك، أهلا بالأخ الجديد ...كم أنت مفدي في كلامك يا زكريا، تتحدث عن ارض الجزائر وبلاد المغرب الكبير بشغف هنيئا لي بصديق مثلك.

وأنا كذلك اعتز بصداقتك، اليوم ستكون سهرة ثقافية مميزة رفقة استاذنا العربي كبادي وأبو قاسم الشابي وجميع الرفاق، سوف نذهب سويا اتفقنا... إن لم تكن ترغب سوف تذهب عنوة.

يحق لك ذلك أستاذ مفدي.. بطبيعة الحال سأرافقك وهل يُضيع مجلس كهذا تستنير به العقول.

لم يعد مفدي زكريا ذلك الشاب المستمع فقط لكل ما يدور في مجلس بيت عمه صالح عن مسلك الحرية ومناهج العمل الحركي بل أضحى حاضرا بشعره منحازا للجغرافيا والتاريخ الجامع لبلدان المغرب الكبير في وجه المستعمر ونصيرا لحق الشعوب للعيش الكريم وتحقيق حريتها.

كان كالعادة اجتماع الحزب الدستوري التونسي لحظة وطنية عظيمة ينتظرها مفدي، جمع اللقاء قبل نهاية العام وفودا كبيرة هذه المرة الكل يريد نقلة نوعية تجعل الحزب القلب النابض لحركات التحرير في المنطقة، فهو يضم أطيافا مغاربية منوعة لكن الروح والهدف واحد.

السي الحبيب أحد أعضائه يحمل قلما و يدون المقترحات على دفتره صغير مستندا على ركبته و هو يحاول أن يجاري سرعة النقاش دون أن يفوته أي شيء قد طرح ، لكنه توقف عن الكتابة لعل أمر ما قد استوقفه رفع يده و بصوت عالي ...يا جماعة ...كل ما تم الحديث عنه أمر جيد لكنه تكرر كثيرا ..لكن علينا أن لا ننسى يا إخوان الحث على مسألة تقرير المصير و أن لا تبقى الأمور حبر على ورق و هذا الأمر يتطلب تضحيات و كما تعلمون الحزب الدستوري في بلدنا

تونس ناضل إلى الآن من اجل حق المساواة و إقامة نضام دستوري..(ثم عاد لينظر إلى دفتره الصغير وضع القلم عليه يريد أن يدون حق الرد على ما قاله)

المهم الاستمرارية وتونس تحتاج إلى الدعم، أتذكر نقطة أثارها الشاب مفدي تتعلق بوحدة المغرب الكبير وهذا أمر ضروري ومنطلق قوة يعتمد عليه في الشدائد أجابه حمودة المنستري.

لاحظ الشيخ صالح أن مفدي على غير عادته قد تأخر وإذا به يفتح الباب، كان حضوره وهو يضع يداه وراء ظهره لافتا فعم الصمت للحظات...اخترق الشيخ صالح ذلك الصمت قائلا..

ها قد جاء ابننا الشاعر مفدي...وكأنه سمعك تتحدث عنه يا سي حمودة.

السلام عليكم، أتمنى أن لا يكون قد فآتني الكثير.

وعليكم السلام يا ابن أخي.. استرح.... على غير العادة تأخرت اليوم؟

لقد تأخرت لسبب مهم جدا وحدث عظيم بنسبة لي فلقد صدر لي قصيدة في جريدة لسان الشعب واعتقد أنها ستنشر في مصر أيضا كما قيل لي.

(وقف أحد المشاركين في الاجتماع.. صفق قليلا وقال) ...*هذا خبر مفرح.. أنت جدير بذلك والله قد اطلعت على كتاباتك منذ صباك وجدتها غاية في الإبداع.. لا تضيع الوقت يا مفدي هيا نود سماعها.*

هذه شهادة اعتز بها سيد محي الدين، أما القصيدة التي كتبتها جاءت بعنوان.. إلى الريفيين.. وهي في خمسة وستين بيتا أحاول من خلالها أن أسهم بأبسط في دعم مقاومة الريف في المغرب الأقصى وثورة عبد الكريم الخطابي ضد الأسبان فما يقومون به هنالك يستحق الثناء ولطالما هو أيضا تحدث عن مقاومة الجزائر ونضال تونس فأردت أن أحييه بهذا الشكل وادعم ما يقوم به من اجل الشطر الغربي للمغرب الكبير..إذا أردتم اقرأها لكم.

بوركت.. هذا ما كنت أتحدث عنه قبل مجيئك وحدتنا سبيل خلاصنا نحو تقرير مصيرنا.. على المغربي أن يفكر بالجزائري والجزائر بالتونسي وهكذا باقي بلدان المغرب الكبير لنكون يد واحدة في وجه المستعمر وعلى هذا المنوال تمدد وحدتنا إلى كل الأوطان العربية، اخي فيك الروح الثورية.. استمر في هذا النهج

تعبيراتك قوية هيا.. كلنا آذان صاغية ونريد سماعك تتحدث كيف إذا قلت شعراء أريد نسخة من القصيدة بعد سماعك.

أشكرك يا سي حمودة كلامك يحفزني لي نسختان سأعطيك واحدة...ولقد أوصيت صديقي مولود بجمع ما استطاع من النسخ.. أما عن القصيدة قلت فيها:

أجبريل هلل بآي الظّفر وكبّر وخط جليل الخبر

ورف بأجنحة النّصر فوق بني الريف حول القنا المشتجر

ورتل على الجيش إن تنصروا الله ينصركم ببلوغ الوطر

واعل اللواء لهام الثريا وسر للأمام بتلك الزمر

سلام بني الريف من مهج تكاد تطير ولا تصطبر

هنيئا بني الريف قد فتحت لكم جنة الخلد من يبتدر

بني الريف هبوا فهذا زمان تحرك ما فيه حتى الحجر

القسم الثاني

السيرة النضالية

كل يوم جديد كان مسرحا لنشاط ثقافي ما يلبث أن يتحول إلى مجلس سياسي كلما أسدل الليل خيوط ظلامه، يبحث مفدي رفقة زملائه من رجالات السياسة في تونس سبل التحرك، فالعدو واحد وضربة هنا وأخرى في الجزائر سوف تربك لا محال من ظن أن حكمه قد استدام.

دق لأكثر من مرة باب حجرته التي ينبعث منها نورا خفيفا حاول كسر العتمة فجمع بين ضوء القنديل في زاوية الحجرة والشمعدان الذي جانبه..

انتبه مفدي الغائب في عالم أخر من الكتابة أن أحدا يدق الباب.

تفضل عفوا...

بعد أن فتح العم صالح الباب سأل.. *حسبتك نمت وقد نسيت الشمعدان إلى جانب أوراقك.. عليك أن ترتاح فبصرك سيضعف هكذا.*

كان الحياء كساء مفدي المعتاد.. فقد بدا خجلا لعدم سماع طرق الباب وكيف انه جعل العم صالح يقلق دون قصد.

تفضل يا حاج بعد أن قام مفدي احتراما لعمه ...لا تقلق عيناي لا علاقة لهما بما اكتب فاليد تترجم وجداني و لا اشعر بالمكان مطلقا حين أدون أفكاري. بل هو سرور يلازم استرسال الأفكار تجعلني بين الأحرف ارسم المعاني وانحت القوافي علها تطرب النفوس وتستقر في القلوب والأذهان.

مم وقد قطع عليك عمك العجوز خلوتك وحديثك مع سريرتك..

لا أبدا لا تقول هذا. فأنت المرجع ومنك دائما نستفيد.. صراحة كنت أنا أود المجيء إليك للحديث في أمر ما وكنت اعتقد أنك قد استسلمت للنوم فعدلت عن الأمر إلى الصباح.

خيرا ما الأمر؟

كنت أريد أن أخبرك أني كتبت رسالة إلى والدي.. أخي يريد عودتي إلى الجزائر والتفرغ للتجارة وهذا أمر مستحيل. سوف أقرأ لك ما كتبت. بعد التحية والسلام على أبي القاسم سيد العرب والعجم وعلى آله الأطهار.. اعلم يا والدي أن أخي محمد قد أرسل جوابا يريد فيه أن أفارق العلم وهذا شيء عجيب، كيف أفارق العلم وهو السبب في سعادتي وسعادة وطني...

قاطع العم الصالح ابن أخيه بعد أن أحس أن تعابير وجهه توحي بحزن شديد.. وضع يده على رأسه مواسيا ...وما الأمر الثاني؟

أما الأمر الثاني أود أن استأذنك في عرض مقترح ميداني في اجتماع الغد.. مقترح نقلق به الإدارة الفرنسية هنا وتكون رسالة للجيوش الفرنسية الجاثمة في بلدنا الجزائر.

بني زكري جوابك كله في الأمر الثاني كل الموجودين ينتظرون آراءك دائما فلا تتردد في عرض ما لديك وهذا الأمر يجعلني افتخر بك دائما لأنك شاب مثقف وموهوب وتتحلى بروح وطنية سوف تجعل أخاك والدك وأنا والجميع في المغرب الكبير يفخر بك.. رغبتك في العطاء وتحقيق حلم والدك ووالدتك هو سر تفوقك، كل يوم تزداد معرفة وتبهر من حولك وهذا الأمر ستحققه وسوف تستمر فيه.. لا تلتفت إلى الخلف. لقد خلقت مبدعا ثوريا سوف تنال شرف تمثيل بلدنا الجزائر يوما.

شكرا على كلامك الجميل انه محفز وبالغ الأهمية. أرى يا حاج أن أعين العدو تتربص بنا وكل أسمائنا لديها وهذا لا شك فيه وتتحين الفرصة والظروف لوقف نشاطنا.. أعتقد علينا أن نقوم بأي تحرك فان اعتقلونا أو ما شابه نكون قد استبقنا الفعل قبل رد الفعل.

شعورك الوطني وروح الجزائر التي تنبض بها روحك تجعلك تخاطب ضمائر كل المجتمعين في العمق.. أحسنت يا شيخ مفدي، الأمر مطروح سابقا ولكن كما قلت علينا تسريع الفعل.

كان مفدي زكريا يستشعر نشوة الفرح في وجوه من يقرأ كتابته وقصائده الثورية ويستمع إلى أرائهم باهتمام، اصطدم بإدارة المستعمر لكن هذا الأمر لم يثنيه طالما العقل والقلب بقيا معلقين بالجزائر وما يحدث فيها وفي كل مرة يتنقل بين

عنابة والجزائر العاصمة وغرداية يدرك جليا أن ساعة الحرية تقترب إلى أن قرر العودة بشكل دائم فالبعد عن الأرض أشبه بحاجة الرضيع إلى حليب أمه..

قارب مفدي الثلاثين من العمر، فكل سنة مرت كانت خطوة إلى الأمام وبناءا صلبا لما هو قادم... كان يوما صيفيا بامتياز عام 1936 على الحدود التونسية الجزائرية متجها نحو الجزائر العاصمة، جلس مفدي إلى جانب جلول سائق الحافلة...واخذ يدون على ورقه داخل كتاب كبير الحجم، ثم يغلقه وينظر من النافذة.

قد لا تختلف الجغرافيا والتضاريس بين المناطق التونسية وشقيقتها الجزائرية، لكن هنالك متنفس هواء آخر عبر الحدود نحو البلاد [1] وكأنك تولد من جديد وكأن النسمات تحمل ريح التراب المعطر بدم الشهداء على امتداد المكان والزمان فتمنحك عنفوان وفرح كبير أنك مسؤول على هذا التراب وتقاتل لأجله بصدر مفتوح...كان يخاطب مفدي نفسه الثائرة.

من نافذة الحافلة كان مفدي يتأمل بعين المناضل الشاب والشاعر المتيم بأرض الآباء والأجداد، التفت إلى جانبيه الأيسر يود أن يسأل سائق الحافلة لكنه تردد ثم قال بصوت مسموع ..... أه.. ما أروع بلادي وما أروع خالقها..

إن هذه السهول والجبال والوديان على امتداد الجغرافيا لو تنطق تتحدث بالجزائرية لهجة وتقول لكل واحد من أبنائها.. هذه الأرض أنتم اصحابها.. هلموا للذود عنها وانعموا جميعا بخيراتها.. لا تفرطوا فيها، انتزعوها من أغلال عدو جائر قد نهبها.

تنهد جلول ثم نظر إلى مفدي وبعد ذلك نفخ في الشباك الذي على يساره دخان سجارته.. ابتسم وتحدث وعينه على الطريق... *لقد أصاب الصمم بعض من الناس.. تُرى هل يحبوا أن يسمعوا هذا الكلام يا بني أو يتركوا أحد يعمل به.. خاصة الآن، هنالك من يدعوا للاندماج وقد أحب وجود فرنسا طيلة المائة عام التي قد مضت على احتلالها للأرض والهواء ولكل شيء ولو بقي قرونا جاثمة لا يُحرك ساكنا ونسي أجداده الذين قاوموا بأرواحهم كل غازي أتى إلى هذه الأرض.*

(1) البلاد: كلمة تستخدم محليا كناية عن مسقط الرأس أي مكان الولادة.

مستغربا مفدي من كلام جلول ...رادا بابتسامة أحسن منها... كلامك في الصميم يا سي الحاج وجميل جدا أن اسمع هذا الوصف وإن كان محزنا، أما من أحب المستعمر واستأنس بوجوده فهم قلة وأنت قلتها البعض. أي ضعاف القلوب.

فقط، انظر هنالك وأنت أكبر مني عمرا، سوف نمر على تلك الجبال كلها تحكي بطولات مشرفة قادها أبناء هذه البلاد رفضا لهذا المستعمر...ظلمة صغيرة في نفوس الضعفاء لا تحجب النور.

أوافقك يا شاب وهذا ما قلته فلا تستغرب.. المقاومين كُثر مروا عبر الأزمنة من هنا كل بطريقته نساءً ورجالا لا فرق بينهم ...لآلة نسومر والمقراني والشيخ الحداد والأمير عبد القادر والشيخ بوعمامة وغيرهم...كانت دوما القلة هي من تخذلهم لكن نهجهم استمر.. كان يعرف فتورا في سنوات ومجابهة حادة للمستعمر في سنوات أخرى.

مهم جدا ما تقول. الغرابة كانت لمحبتي سماع هذا الكلام والخوض فيه لقد فاجأني مضمون حديثك فقط، فعلا الكثير من المقاومات الشعبية من الشمال إلى الجنوب لم تهدأ وأربكت هذا العدو، القصد في المثال من أن الأرض لو تحدثت.. هو تبيان أن الرفض وعدم الانصياع يسري في عروق الأكثرية في هذا الوطن على امتداده ويوم الحساب لا محال قد اقترب وإن طال وعليه فنحن نتفق على نقطة واحدة.

أدرك القصد من كلامك.. إن كلمة الوطن تبعث بالثقة في النفس أمام هذا العدو الذي لا يترك أحد يثور في وجهه والأمثلة كثيرة لكن عليك أن تتعامل مع الأمور بحرص وذكاء شديد يا بني لأجل أن تستمر وتصل إلى هدفك.

أشكرك على كلامك ما اسمك يا حاج؟

لا اسم لي، حكاية سأخبرك عنها بعد حين.. أنا جلول رقم2

ولما الرقم؟

قصة طويلة.. سوف اسرد لك تفاصيلها لاحقا.. ربما لأطمئن إليك أكثر.

من حقك هذا يا سي جلول ...المهم شكرا على النصيحة و لكن مثلما يقول المثل من يخشى البلل لا يصطاد السمك إني أتوق للحرية كبقية شعبي و يشهد

الله أن الخوف لن يثنيني يوما عن السعي نحو بلوغ آمالي و أريد أن أخبرك أمرا، أعلم أن هذا العدو قد وضعني تحت رقابة الأعين التي تسبح بحمده و يعلم بسفري الآن إلى الجزائر و لكن لا اكترث فالعمر واحد و إن مت أمت حرا للمبادئ التي أؤمن بها خدمة لوطن كبير ينعم بالحرية، هذا المستعمر منذ 1830اعتمد سياسة فرق تسد وكنت قد قلت يوما في ما معناه في مؤتمر الطلبة في تونس و قد أسميت الأمر بعقيدة التوحيد في حب الوطن.. إن كل من يساهم في التفرقة بين أجزاء وحدة الوطن فهو عدو لي وسأحاربه بكل الوسائل...لا فرق عندي بين الإخوة في المذهب أو العرق أو البلد ما داموا في خدمة الوطن...وإن خالفت هذا المبدأ أعتبر خائن.

عظيم ...أحسنت.. أقدر حماستك وحبك للوطن، اعذرني لم أسألك أنا أيضا عن اسمك؟

لا عليك.. أنا بدون أرقام.. اسمي زكري بن سليمان الشيخ ولقبت بمفدي، أما الأرض التي ولدت فيها مدينة غرداية لكنني أنتمي إلى المغرب الكبير أهوى أن أراه بلدا واحد...لدي طلفة صغيرة رزقت بها وهي رفقة زوجتي تجلس في الخلف مع الأخوات.

مشاء الله.. جوابك عظيم أيضا. بوركت، إن كل من يفرق بين الناس من بني جلدتنا يخدم هذا المستعمر من حيث يدري أو لا يدري...قل لي أنت كاتب أو فنان أليس كذلك؟ شكلك وكلامك دليل ثقافتك وعنفوان يصل إلى القلب.. إن كنت كذلك أوصيك بأمر ما كلما تصادف أحد أو تسافر مع أي شخص حدثه عن هذا الأمر وذكره بوطنه كي لا ينساه.. بكلامك هذا تنير العقول لكن اكرر الحرص واجب يا بني فليس كل أذن صاغية لك هي معك.

ارتبك قليلا مفدي لكنه غرف من رصيد شجاعته، صحيح وهذا ما أسعى إليه دوما يا حاج، إن المرء بأصْغَريه بالقلب واللسان.. كنت ادرس في تونس ولدي بعض المحاولات الشعرية والكتابات التحريرية، سأبقى أقاوم والحق يقال أنت واسع المدارك وإن كنت لا أعرفك ولكن تبعث الأمل في الوجدان كن حذرا أنت أيضا من هذا العدو فليس كل راكب يؤيد كلامك، إن فرنسا لن ولم تترك أحد إلا وناله ما ناله منها لإسكات صوته.. مثلا في تونس أبعدت زعماء الأحزاب المناوئة قصرا إلى الجنوب لعزل نشاطهم وتواصلهم مع الناس بشكل نهائي.

يا بني الناس من سيماهم وأعمالهم نعرفهم ونذكر أمجادهم.. المهم لكل ظالم نهاية، لاحظت أن دفاترك كثيرة.. وتكتب قليلا ثم تغلق هذا الكتاب الذي بيدك.. سوف نتوقف قليلا للاستراحة فالركاب قد تعبوا وأيضا لتناول بعض الطعام، بعدها أريد سماع ما تكتب لا يزال الطريق طويل.

وهو *كذلك*.. سأخبرك عن ما *تراودني* من آمال ولكن عليك أيضا أن تخبرني حكايتك *فكلامك هذا* دليل تجربة واسعة... *(قاطعه السائق جلول. عن العدد موضحا.. أنا وأخي توأم هو رقم 1 وأنا رقم 2 وعادة نتبادل عند القيام بعمليات تجعل العساكر الفرنسية تستنفر)*

جميل أريد معرفة حكايتك أنت وشقيقك بالكامل ولكن قبل هذا سأسمعك كما طلبت أبيات جعلتها بردة وطنية تجمع شمل دول المغرب الكبير.

تونس والجزائر اليوم.. والمغرب — شعب لن يستطيع انفصالا
وحدة أحكم الإله سَداها — من يرد قطعه أراد محالا
نبتت من أب كريم وأمّ سمتْ — في الحياة عمًّا وخالا
نصبوا بينها حدودا من الألواح — جهلا وخدعة وضلالا
فاجعلوا إن أردتم الكون سدًّا — وضعوا البحر بيننا و الجبالا
نحن روح مزاجه الضاد والدين — فلن يستطيع قطّ انحلالا
كلما رمتم افتراقا قرُبنا — وعقدنا محبة واتصالا

كان اليوم الأول في بني يزقن يختلف عن ذي قبل، توجه مفدي مباشرة إلى زيارة والدته في ارض الفناء يود مخاطبتها وأخبارها ما أقدم عليه ...روحك يا أمي لا تفارقني أبدا والآن أنا أقرب إليك من أي وقت، لقد عدت كما تمنيت في منامي، كنت سعيدا برؤياك ولا أزال.. أود أن أخبرك أني تفوقت في دراستي كما وعدتك وأعدك أن اخدم بما أوتيت وطني وقد رزقت بابنة تشبهك وزوجتي ترعاني حق رعاية سأنتقل إلى مدينة الجزائر شمالا فهنالك العديد من الأمور التي أود فعلها وقد حان وقتها...أريد رضاك وأن تبقى روحك معي.

خفت موازين القلق عند مفدي بزيارة والدته وتوديعها.. كان لقاء وجدانيا مع روح تطوف بفناء تواجده أينما حل وارتحل.. هكذا كان يخبر والده وهو يودع قصر بني يزقن، صدى صوت نداء الوطن كان مشروعا طويلا يحمل كل الاحتمالات.

عليك أن تنتبه جيدا يا بني... هذه زوجتك رفيقة دربك.. أريد أن اطمئن عليكما كلما استطعت ذلك. هكذا كان حديث الحاج سليمان.. يعيده ويكرره.. كان كلامه بطعم الأمومة وهو يوصي ابنه مفدي الشاب...فهذا المستعمر طبعه الغدر ولا يرحم أي معارض لوجوده.

كانت الأجواء في الجزائر العاصمة مهيئة لتغير ما سيحدث، تتسارع الأحداث وتشاء الظروف في البلاد أن يتنامى حزب سياسي جزائري خالص يدعو لأول مرة بالاستقلال التام عن فرنسا والتي بدورها سارعت إلى مواجهة هذا التغير الجديد بعدما أدركت انه سيهدد وجودها على ارض مستعمراتها، فشرارة الثورة إن بدأت لا يمكن إيقافها.

كان الحاكم العام للجزائر جورج لوبوا في مكتبه ينتظر كل جديد.. لم يستطيع البقاء في مكان واحد ولا الجلوس بشكل هادئ.. حين هم بفتح الباب متوجها للخروج.. وصل النقيب فرنسوا..

لقد تأخرت كثيرا.. هيا قل لي، هل أتممت كل الإجراءات، يجب تطويق هذا المهرجان من جميع الجهات.. المخارج كالمداخل لا أريد أن يحدث أي خطأ في المراقبة نقيب فرنسوا.

نعم سيدي، عفوا على التأخير، نفذت كل التعليمات وفقا للخطة الأمنية المتفق عليها، التفاصيل كلها قد دُونت على هذا الملف بما في ذلك الأسماء الفاعلة في المهرجان.. لكن هنالك أمر واحد أخشى حدوثه..

يا نقيب أريد أمثلة ومقترحات.. ما الأمر؟

سيدي الحاكم إن حزب نجم شمال إفريقيا يستقطب حسب متابعتنا الدورية العشرات من المنتسبين وبشكل يومي ومصالي الحاج متمرس في الخطابة وقد يتفاعل الناس مع كلامه ويحدث احتكاك مباشر اليوم.

أشار الحاكم بيده ليتوقف عن الكلام وقال ..*اشعر بترددك.. اسمع، العساكر بكل تجهيزاتهم على مقربة منهم لا يمكنهم فعل شيء ولا تنسى أنهم في نطاق الملعب البلدي.. بشكل عام.. هم محاصرون...إلا إذا أرادوا أن تكون نهايتهم في هذا التجمع.. وإن كنت أريد ذلك لمحوت أثرهم.*

عفوا لدي اقتراح هل يمكن عرضه سيدي؟

ولماذا أنت هنا؟ إني أسمعك قل ما عندك.

حاضر سيدي الحاكم، كنت أود القول لما لا يكون هنالك مندسون بين الحضور ممن يتعاملون معنا.. نجعلهم فقط للتعليق الفوري على كل كلمة يقولها مصالي الحاج ومن يقفون على ذلك المنبر ويقللون من شأنها للتخفيف من حدتها ووقعها بين الناس وهكذا نشتت أفكارهم ويظهر وكأنه رأي آخر يجب أن يسمع.

مسيو فرنسوا أن نستعين بمعاونين بين الحضور كما اقترحت فهذا ممكن وفكرة جيدة لكن دون أن يكون لهم مناوشات بين الحضور أو أي تعليق أو أي احتكاك لا أريد أن أعطي الفرصة لهم ولا للصحف في العالم أن تتحدث عنهم من زاوية الضعفاء من اُستفزوا..أريد أن اعرف فقط ما يُتداول بينهم وماذا يخططون كمرحلة أولية بعد ذلك هنالك طرق أخرى لإنهاء نشاطهم بشدة ولكن في صمت.

علم حضرة الحاكم.

انتظر لم آذن لك بالانصراف، هذا لا يمنع التصدي لأي إخلال بالأمن، لا تتردد.. متى ما تجاوز الحضور الخطوط الحمراء من تلقاء أنفسهم اقطع الطريق عليهم بيد من حديد لكيلا يفكر مجرد التفكير أن يهدد أحد أمن فرنسا وينال من سلطتها على هذه الأرض التي هي ملكا لنا.

لغة الاستعلاء ونية الجرم كانت تطبع نفوس جيش المحتل للجزائر ومن معهم من المستوطنين الذين تكاثر عددهم وتعاقبت أجيال من نسلهم على ارض غير أرضهم.. قابلتها لغة أخرى بأسلوب جديد أكثر فاعلية بدأت معالمها في تطور بعد فراغ طويل.

رغم حرارة شهر آب / أوت من عام 1936و في ظرف ساعات قليلة اجتمع الناس في الملعب البلدي ينتظرون خطاب أبو الأمة كما كان يلقب، الكل كان يريد أن تتغير الأمور وأن لا تدير فرنسا الاستعمارية ظهرها أو تستعين ببطشها، فالعودة إلى الوراء قد طويت صفحتها في نفوس الكثيرين ممن ضاقوا ذرعا من هذا العدو.

انخفضت الأصوات بعد أن اعتلى مقدم المهرجان المنبر وبحماس شديد ...*تحية إلى الحضور الكريم وشكرا لكم على تلبية النداء بعد السماع للكلمات السابقة..*

لترحب الآن بزعيم الأمة وملهم أفكارها وراعي خلاصها السيد مصالي الحاج فليتفضل إلى المنبر مخاطبا الجماهير.

كانت التصفيقات بين صفوف المجتمعين يميزها الشدة والإطالة وكأن منسوب الحماسة يلتظر الربان الأمثل الذي يلهم الناس ويقود سفينة النجاة نحو الخلاص من قيد المستعمر.

دق بيده على ميكرفون المنبر بعد أن امسك بلحيته بكف يده الأيسر ثم أعاد تلبيت الطربوش الأحمر الذي يضعه على رأسه، ربما إيماء بمقدار مكانته في العمل السياسي أمام الجموع أو تعبيرا عن شعور بحجم المسؤولية وجدية الأمر.. نظر مصالي لوجوه الناس ثم استرسل دون توقف..

شكرا لكم.. شكرا جميعا.. بعد السلام والتحية وقبل أن أخوض في تفاصيل المطالب أريد أن أقول يا إخواني نحن أبناء هذا الوطن علينا أن لا نقبل من الآن فصاعدا أن تكون مقاطعة ملحقة إلى فرنسا ولا أن نرهن مستقبل بلادنا الجزائر ببلد أخر. إننا نتطلع إلى الحرية والاستقلال التام..

إخواني الأعزاء جئت باسم نجم شمال إفريقيا لحضور هذا التجمع الهام ونشارك جميعا في هذه التظاهرة الكبيرة.

إخواني، يجب أن لا تناموا الآن على كلتا الأذنين والتصديق بأن كل عمل قد انتهى، بل إنه بدأ لتوه.

يجب أن تلتظموا جيدا، أن تتحدوا ضمن منظمتكم، حتى تكونوا أقوياء لأجل أن يُسمع صوتكم القوي في الضفة الأخرى للمتوسط.

هذه أرضنا المباركة، أرض البركة، إنها ليست للبيع ولا للرهن. هذه الأرض إخواني لها أولادها وورثتها، إنهم هنا أحياء ولا يريدون منحها لأحد.

يا إخوان الظروا جميعا لهذه الحفنة من التراب التي في قبضة يدي.. هذا التراب لا يمكن أن يكون فرنسيا.. أبدا ليس فرنسيا. يسقط قانون الأنديجينا (1) ... ليسقط القانون الاستثنائي وأحقاد الأجناس.. ويحيا الشعب الجزائري ويحيا نجم شمال إفريقيا.

(1) قانون الأنديجينا: أو قانون الأهالي 1871 تعتبر إجراءات تعسفية عقابية ضد الجزائريين الذين رفضوا التخلي عن أحوالهم الشخصية مثل العقوبات الجماعية على المخالفات الفردية ومنع التجول دون رخصة.

مر المهرجان الحزبي دون صدام.. لكن كلمة الاستقلال تركت أثرا بالغا في وجدان الحضور بما في ذلك مفدي فلقد كان يتطلع لهذا اليوم الموعود بشغف كبير جعلت منه تلك الكلمات عضوا ناشطا وفاعلا في أروقة الحزب ساعيا ومتطلعا للمضي في طريق الحرية.

في آخر النهار كان مفدي يخصص وقتا تحت سقف بيته يحدث رفيقة دربه فهي تلعب دور الأم أيضا، يخبرها عن طموحه وآماله ويفصح لها عن عشقه الآخر.

الذي كان قلبه ينبض به.. الوطن لديه هو البيت الكبير الذي وجب الحفاظ عليه واسترجاعه من سارقيه.. كان يشاور الرفيقة عقلها ووجدانها.. شريكا مثاليا يردد بعد نهاية كل نقاش...عقلك هذا منارة لي تجعلني أبصر أكثر طريقي موحش المسالك، نحو حرية بلدي.. إني مؤمن بهذا الشعب.

بعد أيام من ذلك التجمع التاريخي.. كان اجتماع حزب نجم شمال إفريقيا في مدينة الجزائر أكثر من ضروري وبثوب قوي.

...اليوم يا إخوان قد أصبح الحزب على امتداد واسع جدا وهذا الأمر يبعث بالأمل نحو مستقبل جديد اقتضى ضرورة أن يكون هنالك نشيد لكل الجزائريين يحرك الهمم ويقوي العزائم والسي مفدي قد أنجز المهمة ونظم نشيدا نجتمع اليوم لسماعه والإجماع على مضمونه وأيضا لمناقشة نقاط أخرى، تفضل ...مشيرا بيده...

كانت هذه افتتاحية زعيم الحزب وهو قائد هذه المرحلة مصالي الحاج ... كان مقتنعا بكل سطر في النشيد الذي نسجت أبياته بإحكام، لكنه أراد ان يوقد حماس المقاوم المناضل في نفوس المجتمعين من حوله فمن خلالهم يتحرك الحزب ويحرك الناس معه.

قدسية الإلقاء في نفس مفدي تستوجب التحية الشعرية للجميع والنظر لوجوه من معه في الاجتماع وبالتساوي فالكلام مقتبس من وجدانه.

شكرا لكم وشكرا لكل من يتطلع للحرية، كما يعلم الجميع الشعر صناعة لغوية تستوجب صلة الرحم ما بين الكلمات لنعبر عن ذاتنا وأحلامنا وتطلعنا وكل ما يدور في فلك وجداننا، النشيد استقر على أكثر من عشرين بيتا بدأت فيها قائلا..

فداء الجزائر روحي ومالي ألا في سبيل الحرية
فليحي حزب الاستقلال و نجم شمال إفريقية
وليحي شباب الشعب الغالي مثال الفدا والوطنية
ولتحي الجزائر مثل اله و لتحي فيها العربية

رائع.. جميل جدا هذا الكلام.. عفوا لمقاطعتك ولكني انفعلت بشكل عفوي.. فعلا انه ترجمان وطنيتك وحبك لهذه البلاد وما يجول في خاطرنا أيضا، إن الجزائر تفخر بوجودك أكمل من فضلك.. عفوا، أكمل.

لا عليك.. لك جزيل الشكر يا سي بن عمار الجميع هنا يحمل الكثير من الحب لهذه الأرض مثل باقي أبناء هذا الوطن وربما نيابة عنهم أجيد صوغ الكلام والتعبير عن هذا الأمر.

سلاما سلاما أرض الجدود سلاما مهد معالينا
فإنا حولك مثل الجنود لسان هواك يناجينا
سنرعى حقك مثل الأسود ولو قبضوا بتراقينا

أود الانتقال إلى نقطة مهمة أيضا فقلد تطرقت مثلا في أبيات أخرى من النشيد إلى ما يدور من حولنا من دعاة الاندماج مع المستعمر والانسلاخ والتنكر عن الهوية فقلت..

فلسنا نرضى الامتزاجا و لسنا نرضى التجنيسا
و لسنا نرضى الاندماجا[1] و لا نرتد فرنسيسا
رضينا بالإسلام تاجا كفى الجهال تدنيسا
فكل من يبغي اعوجاجا رجمناه كإبليسا

ابتسم مصالي الحاج وأومأ برأسه فرحا، أحسنت.. هذا لُب ما نسعى إليه لقد أصبت فعلا أصبت.. ما رأي الجميع هل الكل موافق؟ جيد، إذا كما أرى الجميع موافق.. سنطبعها على صفحات الجريدة والإخوة مع سي الجيلالي أقدر بهذه المهمة أليس كذلك؟

(1) الاندماج: إلحاق الجزائر إداريا وسياسيا واقتصاديا وتعليميا بفرنسا وجعل الجزائر جزء من فرنسا.

أجل سأتابع رفقة أخي بلقاسم عملية طبعها.. على الجميع أن يطلع عليها في جريدة الأمة ويحفظها بقلبه ووجدناه وحينما تُسمع أيضا لا محال سوف تستقر في النفوس...بارك الله فيك يا شاعرنا المناضل والله أحسنت صنعا.

شكرا.. يا سي الجيلالي والله يبارك في الجميع، هذا المطلوب متى ما شحنا همم الناس ستكون مستعدة لأي عمل في سبيل تحقيق الهدف.

لم تبقى إدارة المستعمر تشاهد طويلا تحرك مجموعة من الشبان جعلت سقف مطالبها الاستقلال وترددها في ميادينها دون أن تحرك ساكنا فعمدت إلى حل الحزب ومصادرة مقتنياته خاصة بعدما أضحت جماهيريته تتسع يوما بعد يوم وازداد إيمانهم أن الحقوق تأخذ ولا تعطى، هذا الأمر لم يثنى من عزيمة مفدي ورفاقه فأعلنوا ميلاد حزب بديل ...كان حزب الشعب.

في مقر الإدارة الفرنسية في مدينة الجزائر كان كولونيل هنري يصرخ و في حالة متوترة ..فالعمل السياسي سواء كان يعلن المواجهة أو المناورة في حد ذاته مرفوض.

هذا الأمر هراء، كيف لمجموعة في سجن الحراش تقوم بكتابة منشورات وتقوم بتحريرها وتسرب خارج السجن وتطبع وتصدر بكل هذه السهولة ونحن في غفلة من أمرنا، أريد تفسيرا لما أنتم هنا؟

كان النقيب برنار ينظر إلى الأرض ثم يرفع عيناه مبررا ما حصل...

لا اعرف كيف حدث هذا الأمر ولكنه خرقا نعمل الآن على معالجته ومتابعة مكامن الخلل مع حراس السجن وقائده العام، لدينا معلومات أن أزيد من ثلاث مئة شخص قد اجتمعوا البارحة تحت مسمى حزب الشعب وهم يحضرون لأمر ما ... كل التفاصيل سوف تكون على مكتبك هذا المساء.

قاطعه كولونيل هنري: *لقد بلغني أمر هذا الحزب و قد أصدر منشورا باسمه، أريد معلومات أخرى ..أريد أمرا ملموسا لا أريد الانتظار .. هؤلاء إن بقوا هكذا سوف يزداد نشاطهم وتقوى مطامعهم، الآن يطالبون بإلغاء قانون الأهالي ويدعون إلى حكومة مستقلة وربما نستفيق يوم الغد على خبر الانفصال عن فرنسا الأم.*

فعلا سيدي، لقد رصدنا اتساع رقعة قاعدتهم الشعبية في مختلف المدن و أرى أن حل الأحزاب المعادية و منع توزيع و بيع ما يرددون من أناشيد و منشورات

لم يجدي نفعا و أخشى أن يختل الأمن العام، ربما حضرة كولونيل علينا بعقاب أقوى.

أنتم ترتكبون أخطاء فادحة نقيب برنار اعرف انه لا يجب أن نطيل الملاحظة والمراقبة عليك أن تُبلغ كل الوحدات التي تحت إمرتك بمحاصرة مكان تجمعهم.

حاضر سيدي.. هنالك شخص اسمه مفدي زكريا هو من يدير هذا المنشور ويحرر الكثير من النصوص فيه ولقد أصبح صوت الحزب ويكتب ما يرددون من أناشيد معادية لنا وهذه المجموعة في الأصل امتداد لحزب نجم شمال إفريقيا الذي تم حله.

تقدم كولونيل هنري خطوات ثم همس في أذن النقيب برنار .. *يجب أن يتوقف هذا الهراء وأن ينالوا عقابا ينسيهم حتى أسمائهم وإلا ستعاقب أنت وكتيبة الحراسة التي بأمرتك اشد عقاب.. خط أمر التوقيف اليوم لكل المجموعة وصادر كل شيء تعثر عليه في مقر تواجدهم يجب أن تُمحى هذه الأفكار ولا تستمر وأن يحاكموا جميعا...تفضل بالانصراف...هيا.*

أمرك سيدي.

كان هجوم السلطات الفرنسية مباغتا فلم تمهل أي وقت لأعضاء حزب الشعب في التجمع أو تظاهر أو المواجهة بل جمدت ذلك النشاط السياسي والفكري دفعة واحدة وزجت به في سجونها تخوفا وعمدت على حله نهائيا احترازا.. نصيب مفدي من الحكم كان سنتين ورفيقه مصالي الحاج حُكم بالمؤبد أما من كانوا معهم طاولتهم أحكام مختلفة هدفها الإقصاء من ميدان المواجهة، ظنا منها أنها طوت صفحة النضال إلى الأبد.

من مسافة بعيدة في مدينة الجزائر تتراءى لك ربوة عالية اقتطعت مساحة منها وتعالت فيها أسوار عثمانية محكمة جعلت منه سجنا عتيقا كان في تلك الفترة يستخدمه العثمانيون لسجن الإسبان أثناء الحملات التي كان يقوم بها الملك العثماني سليمان القانوني وجيشه في المنطقة..

وبعد احتلال فرنسا الاستعمارية ارض الجزائر قامت بتوسعته لتشيد سجنا ثانيا بنفس المكان محافظة على نفس النمط العثماني في البناء كان واسع الأرجاء لكنه

ضيف في عتمته.. كان اسمه سجن بربروس [1] استغلته لقمع كل الأصوات التي تطالب بالحرية.

في هذا السجن، تتوقف الحياة.. كانت بقعة الضوء القادمة من إنارة الممر نحو باب الزنزانة قد جذبت إليها مفدي وكأنه حبل سري نحو حرية يتطلع دوما لها.. كان ملاذه الدائم والمكان الذي يسترجع فيه قوى أفكاره.. يلامس تلك الخيوط النورانية علها تنقله إلى أفق بعيد عن هذا المكان معتم الملامح.

اقترب منه من سبقه إلى هذا المكان بسنوات.. كانت خطواته تثاقلت ربما تعودت على إيقاع السجن.. كان اسمه إبراهيم تهمته كانت وطنية بامتياز ووسام على صدره كما يردد دوما بين نفسه أو لمن هم أقرب إليه في وطنيته. بصق على وجه ضابط فرنسي اعتدى عليه لان مظهره لم يعجبه.. وضرب أيضا مستوطنا امتلك أرضا ليست له وامتنع عن دفع أجرة له...جمعت التهمتين في نظر العدو وأفضت إلى عشر سنوات سجنا.

بما يفكر السيد مفدي؟ الأيام والساعات لا تزال طويلة والسجان هنا يريد أن يرانا نموت في صمت الواحد تلوى الآخر.

آهلا بأخي إبراهيم، اجلس... ليس الضرر في أيام سجن فقط.. ظلمة الليل أشق فهي لا تنتهي وعتمة الزنزانة تتكرر كل ليلة تجعلك تفقد السيطرة على حواسك وهذا دليل عجز لا أحبه أبدا.. فلقد خلقنا أحرار ولابد أن نبقى كذلك.

لا تحزن.. سوف تنقضي هذه الأيام عاجلا أم أجلا.

لست حزينا فوجودنا هنا لقضية محقة سنظل ندافع عنها ودليل مواجهة وتحدي.. لكن ما يشغل بالي أمر آخر فلقد وصلتني رسالة من والدي يطلب مني بمحبة أن لا أخوض العمل السياسي مرة أخرى واكتفي بتدريس العلوم و الأدب و الشعر لتنوير العقول...ليس تقاعسا في دعم بلادي و لكنه يرى أنني من الممكن أن أسهم بطرق أخرى تجعلني بعيدا عن هذه الأسوار القاتمة و أكثر حركة و نفعا للناس لتوعيتهم.

[1] سجن بيروس: نسبة لخير الدين بيروس عُرف عند الأوروبيين "ذو اللحية الحمراء" هو أكبر قادة الأساطيل العثمانية وأبرز رموز جهادها البحري، تولى منصب إيالة الجزائر ثم عينه السلطان سليمان القانوني كقائد عام لجميع أساطيل الخلافة العثمانية.

هي محبة يا سي مفدي هكذا أراها وكما تفضلت هو يريد أن تفيد غيرك وأنت بأمان وهذا شعور مشروع للأهل تجاه أبنائهم حتى وإن تخطى بهم العمر سن الرشد بمراحل.

أدرك هذا الأمر وأقدر كلامه واحترمه فوالدي العزيز قدوة لي في كثير من الأمور وكما ترى لا أمان ونحن أغراب في وطننا تحت سلطة استعمارية احتلت كل شيء في حياتنا وتعاقب الغبن جيل بعد جيل وكل من يتكلم ويتحرك أو ينتفض تزج به في السجون أو تنكل به أمام الملء ولا تجد حرجا في ذلك.

صحيح وماذا ستفعل؟

لقد كتبت له رسالة ود ومحبة وعرفان.. انتظر لحظة، سوف أطلعك على جوابي.. فيما يتعلق بالرد على طلبه. لقد تعمدت الإجابة مباشرة وقلت للوالد الحبيب وأدرك انه سيتفهم الوضع فهو من علمني حب الوطن والتضحية لأجله ويريد لي ذلك، لكن عاطفته طغت على رسالته قلت له... إني لا أريد هذه الحياة ولم أخلق لها وإنما خلقت لأدافع عن بلادي واشترك في صف الجهاد متى ما استدعى الأمر ذلك... لم أخلق يا أبي الكريم كي أعيش عيشة الخمول والاستكانة والموت وقد علمتني هذا... هذا ما كتبت.

ونعم الكلام... أحسنت والله أرى استقلال الجزائر في وجهك كلما انظر إليك... آمال أن يطمئن عليك والله إني أتعلم منك كل يوم يا شيخ مفدي.

أشكرك.. لو أخبرك عن مآثر والدي الكريم فهي لا تحصى ولا تعد لقد كان لي الأب والأم والصديق إلى الآن سأجعله يفخر بي يوما كما افخر به كل يوم.

أطال الله في عمره ونفرح سويا معه باستقلال بلادنا من هذا العدو الذي يتربص بنا وبكل مقاوم ولا يراعي أي شريعة إنسانية.

بإذن الله يا سي إبراهيم إن هذا العدو يريد كسر شوكتنا ولا يستطيع ذلك، إن الخوف يظهر عليه جليا وهذا دليل ضعفه رغم ما يملك من عتاد وسلطة مغتصبة وبطش حاقد... سيهزم يوما لأننا أصحاب هذه الأرض.

والله انتظر ذلك اليوم يا أخي مفدي وبفارغ الصبر فهذا المستعمر الغاصب لا يعرف غير القتل والزج في السجون، يبيد العديد دون حسيب ويقطع الرؤوس وينكل ويعتدي على أعراضنا.

اسمع إن شعلة الحق لا تنطفئ أبدا إن متنا فنحن شهداء ودم الشهيد يبقى خالدا ولا يموت، يلهم الأحياء ليسترجعوا كل ما فقدناه.. العدو منذ أن وطأت قدماه ارض الجزائر يلتفت يمينا وشمالا خائفا لأنه سارق، اليوم أنا وأنت والعديد من الرفاق وجها لوجه معه. ألم تلاحظ أنهم مهزوزين وكلما رأونا جماعة نتحدث في الساحة تعالت أصوات صافراتهم وسارعوا إلى تفريقنا رغم أننا عزل وتحت سقف سجنهم.

فعلا يا شيخ خاصة هذه الفترة... نحن أصحاب حق، مثلما قال حسان البارحة علينا ألا ينقطع ترتيب الأمور وإن مكثنا هنا طويلا.

وهذا المطلوب.. الحرية مطلبنا يا صديقي ولا تأخذ على جرعات من هذا العدو علينا أن نكون أحرار أو لا نكون.

حرية على أطراف الوطن

بعد مرور سنوات قليلة...

مخططات فرنسا التوسعية لم تكن إحكام القبضة على المستعمرات وشغلها الشاغل فقط بل أيضا ما يحدث في قلب أوروبا الممزقة وزحف النازية نحوها كان أبرز اهتماماتها... تلبدت أحوال السياسة وتعاقبت الأحداث بسرعة منذرة بواقع جديد.. إلى أن دقت طبول الحرب فتيل شرارتها الأولى معلنة حربا عالمية ثانية واسعة الأرجاء.

كان مفدي قد اكتسب تجربة إضافية عقب خروجه من السجن حين كان وجها لوجه أمام جنود وعساكر فرنسا... حسه الفني أيضا جعله نقطة التقاء الفنانين المهتمين بحرية الوطن واستقلاله، نشاطه التجاري جعل دائرة زائريه تتسع أيضا فتوسعت معارفه في مدينة الجزائر، كل هذه الأمور حولته إلى ترجمان ما في نفوس الناس فكان يستقرىء ضمير الشعب ويحفز ويغذي طموح كل من يحدثه ويذكره بثقة عالية بأن الجزائر تقترب من تغير الواقع ففرنسا تشيخ وتهرم وإن جن جنونها ببطشها فهي في أخر أيامها.

في حي القصبة العتيق في مدينة الجزائر كانت أخبار الحرب العالمية الثانية قد ألقت بظلالها.. الجميع يتحدث عنها.. ليس حبا في مجارياتها ولكن تطلعا للوعود التي أطلقتها فرنسا الاستعمارية أنذاك.

يا لها من حرب يا شيخ بوعلام الكل كان يقاتل حسب مصالحه، حلفاء ودول محور وأسماء أخرى لا حصر لها والمحصلة من يتزعم هذا العالم.

فعلا هي الحرب يا صديقي مفدي ووسط كل هذه الأسلحة والدمار تصمت القوانين.

يدّعون هذه القوانين يا شيخ و لا يطبقون حرفا واحدا منها و لو كانوا أهل لها لما كان هذا حالنا منذ عقود قد خلت من الزمن تحت نير مستعمر مستبد.

ربما يصدق الفرنسيس يا سي مفدي ويمنحوننا الاستقلال مثلما قالت إدارتهم منذ أيام نظير قتال العديد من أبناء بلدنا.

عن أي وعود تتحدث وهل للمستعمر ميثاق؟ يا أخي من وعدك بكل شيء لم يعدك بشيء وإن من يحارب الآن من إخواننا مجبرا فقط وكل آماله الحرية، أخشى أن يقاتل طويلا وفي النهاية يهدى له قطعة وشاح ملونة وفقط.

آه.. ستكون خيبة أمل كبيرة.. نرجو السلامة لهم وأن يكونوا سببا لاستقلال البلاد.

إن شاء الله يا شيخ بوعلام إن الحق لا يقاوم سلطانه ولابد أن يسترجع بالقوة في مثل هذه الظروف، على الشعب أن يخلي عنه الأماني ويركب العزم ويترك الجمود ويقاوم بما استطاع.. اعلم أن:

كل من يعتمد على الغير أضحى — بيد الغير في الحياة مسود
كل من يرتضي حياة هوان — عاش في أرضه الشريد الطريد.

كلامك صحيح، شعور الانتظار أن هذا العدو سيمنحنا الاستقلال فيه مذلة رغم أن القوى غير متكافئة.. لكن أفضل أن نقتل جميعا ونطهر هذه الأرض من رجس طغيانهم.. على أن يهدى لنا شيئا وفق شروط وإن كان الأمر برمته اشعر انه مستحيل وقد اقتنعت بكلامك...فلا محتل يغادر دون مكاسب ومن ارض يعمل جاهدا لجعلها فرنسية.. لغة وهوية وتحكما.

وأخير هذا هو الكلام المعقول يا شيخ بوعلام لقد وفرت على ما كنت أود قوله لك عندما أحسست أنك تنتظر كرم سارق.. نحن وأجدادنا وأجداد أجدادنا لم نركع يوما ولم يستطع أي غازي أن يحتوي أو يتحكم بنا، خلقنا أحرار وأكررها دوما ...ثقتي بأبناء هذا الشعب كبيرة جدا.. سوف تهون الصعاب إذا ما تحركنا وواجهنا، اعتقد أنها مسألة وقت فقط.

استطاعت فرنسا بمعية حلفائها ومن دفعت بهم للقتال في صفوفها الأمامية من بلدان مستعمراتها أن تكبح تقدم الألمان نحوها وافتكاك ما خسرته من أراضيها، لكن ما كان ينتظرها هو استحقاق آخر أمام شعب يتطلع كل لحظة وبشغف للتحرر من قيودها ومغادرة من استوطن أرضها عقودا طويلة.

في مقاطعة بروفانس الفرنسية عام 1945 وعلى الحدود الايطالية كان الجنرال جاك ماسو رفقة النقيب دوريو.. يتحدثان بنشوة النصر على ألمانيا.

ها هو التاريخ يكتب حياة جديدة لفرنسا.. نقيب دوريو..لقد انتصرنا ...عاشت فرنسا العظمى.

أجل يا سيدي، لقد انتهى كابوس ألمانيا النازية وخلّف دمارا كبيرا في العمارة والأرواح وكان لنا ما أردنا.. سوف ننعم فهذا النصر سنينا طويلة.

إن الشق الثاني من كلامك صحيح سوف ننعم بهذا النصر فلا يجرأ أحد الآن أن يتحدى فرنسا العظمى أما الخسائر واضحة للعيان فعلا ولكن لا يوجد شيء بدون ثمن، المهم إننا حققنا انتصار ا رفقة الحلفاء وهذا الدمار سوف يزول في أسرع وقت فلدينا مستعمرات افريقية يمكن التعويض منها فلا تقلق لهذا الأمر.

فعلا حضرة الجنرال وهذا هو المطلوب في هذه المرحلة، لكن ماذا عن مقاتلي المستعمرات لقد شكلوا النواة الأساسية في قتالنا مع ألمانيا النازية.. إنهم ينتظرون الأوامر سيدي.

ونحن أيضا ننتظر القرار كي يغادروا فرنسا الأم لقد أبلوا بلاءً حسنا وسيكونون في مقدمة حروبنا متى ما شئنا.

صحيح جنرال وهذه واحدة من ميزات توسع ارض فرنسا.

لكن... اسمع يا حضرة النقيب عليكم أن لا تغفلوا عن هؤلاء المحاربين يجب أن يراقبوا وألا يُعطى لهم قيمة كبيرة بين أهلهم هناك، كي لا يثوروا علينا ولا يفكروا في هذا الأمر إطلاقا، فقتالهم كان شديدا ولولاهم كما تعلم لطال أمد الحرب...هذه تعليمات يجب أن تعمم.

علم سيدي.. هل من خطة إذا ما طالبوا بما جاء في بيان الحرب الأول؟ لا اعتقد سوف نتنازل عن شيء لهم..

(بدا الانفعال على الجنرال جاك ماسو ثم ضحك بصوت عالي ورد على النقيب دوريو):

هل أنت على ما يرام؟؟ لا أحب المغفلين.. متى تنازلت إمبراطورية فرنسا العظمى عن شيء أصبح ملكا لها؟ نحن لا نعير أي قيمة لهذا الكلام، إنها من خطط الحرب وكانت وسيلة لشحن قواتنا في مستعمراتنا وتحفيزهم على القتال في

الصفوف الأمامية فحسب...وأعلم متى ما فكروا غير هذا سيكون هنالك تصرف آخر ينهي وجودهم.

فهمت الآن سيدي الجنرال وقد اتضحت الصورة.

ككل صباح كان يقلب مفدي صفحات الجريدة وهو الآن يقرأ أسماء المقاتلين الشجعان من بلاده والذين اجبروا على القتال.. لكن فرنسا العجوز لم تذكر فضائلهم بل أعدادهم، كانوا بالنسبة لها ترتيب أرقام فقط.. لولاهم ما كانت تحتفل بالنصر الآن.

إعتكف بعد ذلك مفدي تحت سقف حجرة بيته يكتب ما حدث من حوله يضع رؤية لما هو قادم. لم يقدر في البداية ثم نظر إلى الأعلى مخاطبا السماء.... آه لو كان بمقدوري أن ألتقي هؤلاء المقاتلين الأشداء ويحدثوني عن تفاصيل أيامهم وأنشد لهم للوطن لفعلت..

كان متيقنا أن سواعدهم خلقت لعزف الحان البنادق في وجه هذا العدو فهم ينتظرون الفرصة لصون تراب هذه الأرض وتحريرها ...يدرك مفدي أنهم وقود ثورة الجزائر فهذا يريح تفكيره ويطمئن قلبه وحافزا لكتابة كل الأماني والتطلعات المشروعة.

كانت الرصاصة الأخيرة لنهاية القتال في أوروبا. جاء بعدها البيان الرسمي مُعلنا انتهاء الحرب العالمية الثانية وانطلاق مراسيم الاحتفال في فرنسا ومستعمراتها...الكل عاد إلى قراه ومداشره [1] يحمل من الذكريات والآمال الكثير.

صباح مدينة الجزائر كان مختلفا ذلك اليوم، تقاسم الجنود الجزائريين فرحة العودة إلى الوطن.. على أطراف مرفأ الوصول وقف مصطفى بن بولعيد [2] رفقة السي قاسي يستنشق هواء البلاد التي زينها المستعمر بأعلامه في كل زوايا على امتداد النظر مرفقة برايات الحلفاء.

(1) الدشرة: لفظ جزائري يعني قرية أو قبيلة وجمعها مداشر وهي مجموعة من السكان يسكنون منطقة عمرانية بسيطة وتجمعهم في الغالب قرابات و مصاهرة.

(2) مصطفى بن بولعيد: شخصية ثورية وقائد عسكري جزائري ويعد أحد قادة الثورة الجزائرية وجبهة التحرير الوطني لقب بأسد الأوراس وأب الثورة، استشهد في شهر مارس/آذار1956

وأخيرا انتهت هذه الحرب يا سي قاسي، كنت أخشى أن أموت في هذه المعركة التي لا تعنيني أبدا...والحمد لله ها نحن الآن في طريقنا إلى الأهل والأحبة ...انظر إلى تلك الإعلام الفرنسية التي ترفرف، تبا لهم.

نصر زائف...المهم الحمد لله على سلامتنا جميعا والله الكل كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، لقد كان قتالا بالإكراه ضد الألمان والطليان.. ولكن لأجل قضية بلدنا الجزائر تهون الصعاب...المهم أن نحقق هدفنا ونبلغ استقلالنا.

إن شاء الله سوف يتحقق ونحتفل بذلك سويا أخي قاسي.. آمل أن تفي فرنسا بعهدها وإن كنت اشك في ذلك، فما قتالنا إلى جانبها وتجنيدنا في مقدمة صفوفها رفقة الرجال إلا من أجل ما وعدت به مباشرة بعد انتهاء هذه الحرب.

وهذا ما نتمناه جميعا.. شارل ديغول قال ساعدونا من أجل تحرير فرنسا وستحصلون على حريتكم، لا أدري ولكن لا يُؤمن لهم جانب، فهذا العدو ولا يعول عليه أبدا..

صدقت.. هل تعلم أني سأفتقدك كثيرا، يجب أن تعرف أني أقدر روحك الوطنية وأحييها يا ابن جُرجرة [1] لقد كنت نعم الأخ والسند في الشدائد.

وأنا أقدرك أيضا... المهم لقد اكتسبنا رفقة الرجال خبرة في ميادين القتال.. ربما سنلتقي في معركة أخرى.

صحيح...لما لا تأتي معي يا سي قاسي إلى الاوراس؟ [1] سوف يفرح بك الرجال كثيرا.. وتدعم صفوفنا.

إن شاء الله يوما ما، ولكن قلت صفوفنا...؟ عن أي صفوف تتكلم؟ وأيضا لا يمكن أن أفارق ارض القبائل وجبال جُرجرة فلها من الشوق الكثير في قلبي.

والله يا سي قاسي أفكر بأمر إن كتب الله له التوفيق سوف يكون له شأن كبير.

إن شاء الله أسأل الله أن يوفقك وأعدك بعد أن أزور الأهل سوف نلتقي يا أخي مصطفى ... المهم في آمان الله الآن وبلغ سلامي لكل الاوراس.

(1) جُرجرة / الأوراس: هي جبال عالية القمم وسط وشرق شمال الجزائر يقطنها قبائل الامازيغ شهدت العديد من المعارك والانتصارات ضد الاستعمار الفرنسي.

إني انتظرك...رافقتك السلامة.

أجواء البهجة الفرنسية والغموض في الوفاء بعهدها كلها ظروف لم تكن تعني مفدى. فروح الوطنية والوعي السياسي قد ارتفع منسوبه ونضج بين أوساط الناس، اخذ يدون الحلول ويرسم العبارات التي من شأنها أن تعجل التغير فهذا المستعمر سوف يستمر في المماطلة.

في طريقه إلى البيت كان يحدث نفسه عن تلك الأخبار التي سمعها في ذلك الاجتماع، توتر وتجاذب متنقل بين المعمرين والأهالي وتهديد كل من يعمل عندهم، لكن ما بقي وجدانه هي قصة ذلك الطفل في مدرسة بجاية وكان جزائريا قام بعمل يحمل جرأة بطولية حيث قد عدل نموذجا مكتوبا على لوحة الكتابة في المدرسة فبدل.. أنا فرنسي وفرنسا هي بلدي.. كتب، أنا جزائري ووطني هي الجزائر...كان يبتسم مفدي وهو يمشي فشعور الوطنية يُعدي ويثلج القلب وأمر صحي من شأنه أن يبني وطن مستقل.

كعادته كان يحمل مجموعة ورقية وقد ابتلت أطرافها بفعل أمطار تلك الليلة الربيعية الباردة وهو يضعها تحت معطفه، فور دخوله إلى البيت وجد رفيقة الدرب في انتظاره فهي نصفه الآخر الذي يأتمنه على أسراره ويدرك أنها تنتظره وتصغي إلى أفكاره وآماله.

بعد التحية سألها بصوت خافت..

آمل أن لا تكون أصوات الرعد والبرق قد أيقظت ابننا؟

لا لقد نام منذ وقت طويل وتفقدته أكثر من مرة...هل أنت على ما يرام.. عليك الحيطة والحذر.

لا تقلقي.. بالعكس أنا على ما يرام وكان لقاء اليوم مع الرفاق في غاية الأهمية وجعلني سعيدا جدا.. رغم الحرب الكونية التي حدثت ورغم الفقر والجوع لكن هنالك إحساس أن تغير ما سيحدث وفي نفس الوقت على يقين أيضا أن هذا العدو يتحين الفرصة لإخماد أي بادرة لتغير هذا الواقع.

والله سمعت يا شيخ أن هذا المؤتمر العالمي يساعد على التحرر.. أليس كذلك؟

جميل متابعة جيدة.. أحسنت.

أجابته مقاطعة بروحها المرحة ..*أحاول أن أقلدك حتى ابنك سليمان الصغير يصغي للمذياع بانتباه رغم انه لا يعي تفاصيل الكلام.*

حفظكم الله لي. هذا المؤتمر دفع جديد نحو تقرير المصير حتى الخطوة العربية في تأسيس جامعة أمر مهم.. لكن فرنسا مراوغة وتواجه بجبروت المتعالي.. لكن هذا لا يثني أبناء بلدنا إذا ما انطلقت شرارة الثورة على الأرض.

سوف أقوم بترتيب هذه المنشورات فهي السبيل كي يصل صوتنا إلى أقصى مداه.

أشكرك يا شيخ أنك شاركتني ما تيسر من نشاطك حفظك الله لنا وألهم أبناء وطننا القوة والعزيمة والصبر.

لا شكر بيننا أنت رفيقة دربي ودعاؤك لي في غيابي رفيقي في الشدائد كما يرافقني طيف والدتي أيضا رحمة الله عليها.. فهي سر توفيقي ونجاحي.

رحمها الله ورحم جميع أمواتنا.

بعدما استفاق المستعمر الفرنسي من هول الحرب التي خاضها رفقة حلفائه والمجندين بالقوة من مستعمراته استدار إلى الجزائر لكن بزيه العسكري...أيام قليلة ويبدأ الاحتفال وأجواء الحركات الوطنية في الجزائر ترفع من مستوى التنسيق الشعبي.. الكل ينتظر الأسبوع الأول من شهر ماي / أيار عله يكون نقطة التحول المرجوة.

أقبل الفاتح من ماي / أيار حاملا رياح التغير معه، في مقر الحاكم العام ايف شاتينيو في مدينة الجزائر كانت البرقيات لا تهدأ وتصل تباعا.. يقرأ الأولى والثانية.. إلى أن دق باب المكتب كان الجنرال هنري مارتان يود مقابلة الحاكم العام على وجه السرعة.

نعم ...تفضل بالدخول.

عمت صباحا سيدي الحاكم، لدي بيان استلمته الآن من قبل جماعة فرحات عباس وكما يسمون أنفسهم أحباب البيان الجزائري... تفضل.

اهدأ.. انظر إلى هذه البرقية أولا. الاشتباه بتحرك نازي هنا في ارض مستعمرتنا والأمر الثاني لا أريد سماع هذا الأسم وليس لدي الوقت لهؤلاء المشاغبين الذين يدعون أنهم نشطاء لأجل قضية وهمية وليس لدي متسع من الوقت كي أضيعه

في قراءة منشوراتهم، لقد اعتقدنا بوفاة ابن باديس [1] سوف يتوقف كل شيء وأبعدنا مصالي الحاج وكان من الأجدر أن نبعد الجميع وننفيهم دفعة واحدة.. أخبرني باختصار عن فحواه دون أن تطيل.

حاضر... إنهم يطالبون بتقرير المصير ويرون أن الاقتصاد ينحدر إلى أدنى المستويات بسبب الحرب التي مضت...ويذكرون بالبيان الذي صادقت عليه دولتنا العلية قبل الحرب وينص على الاعتراف ما أسموه بالأمة الجزائرية وبجمهورية مستقلة ذاتيا دون السيادة الفرنسية ووا..

وماذا أيضا؟ (انفعل الحاكم العام وقام من مكانه..)

أجاب مسترسلا...مجموعة أخرى ممن كانوا في صحيفة الشعب تجتمع بشكل مستمر وكأنها تحضر لأمر ما وأسمائهم موجودة في الصفحة الرابعة وبعض التفاصيل والمعلومات مرفقة أيضا في هذا الملف وفصل كامل عن الشمال القسنطيني والتكتلات السياسية ومجمل التحركات هنالك... تفضل.

مم.. لقد جعلتني انظر إلى هذا الملف اللعين، القائمة طويلة.. محمد قنانش.. مفدي زكريا.... مم.. كلام يقارب الخيال والجنون على حد سواء، طلبهم وتفكيرهم واجتماعهم مرفوض جملة وتفصيلا يجب أن يعلموا بكل الطرق أن الجزائر ارض فرنسية.. بعد مُضى عقود طويلة يطالبون بشيء يشبه الهراء، عليهم أن يعوا ويذكروا هذا فقط...لا شيء غير هذا...الجزائر فرنسية وفقط...والقوة هي السبيل لتعليمهم ذلك.

وهنالك أمر آخر سيدي...

ما بك مسيو مارتان، قل ما عندك دفعة واحدة؟

(1) ابن باديس: ولد في مدينة قسنطينة وهو من رجال الإصلاح في الوطن العربي ورائد النهضة الإسلامية في الجزائر ومؤسس جمعية العلماء المسلمين عام 1931.

لقد أبلغت يا حضرة الحاكم إن هذه الحركات و الأحزاب يزداد نشاطها في هذه الفترة و لقد ظهرت للعيان في مظاهرات عيد العمال في العديد من المناطق و هتفوا بالاستقلال و بإطلاق سراح مصالي الحاج و هي تعتزم التحضير لمظاهرات تصادف احتفالات الانتصار على النازية و دعت الناس إلى ذلك و تطلب ترخيصا في العديد من مناطق شرق البلاد.

الترخيص للتظاهر ...الهدف في المصيدة.. يريدون الإذن بذلك جيد... وهذا هو المطلوب، سيكون لهم ما أرادوا وسنمنحهم الترخيص فهي فرصة مواتية لنا، علينا أن نضع لهم حد دون رجعة ولكن قبل هذا بلغ رؤساء المناطق أن هنالك اجتماع طارئ ...اطلب من الكتائب العسكرية الثلاث الاستعداد، عليك تسليح إقليم قسنطينة جيدا وتدارك النقص. أريد أيضا القائد بورديلا على الهاتف.

بدأ امتحان النزول إلى الشارع وغصت الطرقات بمواكب الحشود الشعبية من كل الفئات العمرية في الشمال القسنطيني ومناطق متفرقة من أرجاء الجزائر ... الأعداد تتزايد وتهتف للاستقلال بصوت واحد، انه يوم غير اعتيادي ذلك الثلاثاء المنعطف.

كان المستوطنون الأوروبيون في أرض الجزائر رفقة أبنائهم يراقبون ما يحدث من على شرفات المنازل وكأنهم عيون حارسة لقوات الشرطة المنتشرة على الأرض، كل الأجواء توحي انه يوم استثنائي سوف يسجل في التاريخ. هي روح الانتقام من الشعب، كأنهم ينتظرون أي تحرك مشبوه في نظرهم للضرب بقوة ...التهمة وضعت مسبقا.. استفزازات نازية بأيادي جزائرية والذين هم في الأصل أصحاب الحق والأرض.

كانت مدينة سطيف شرق الجزائر تغلي وتعج بالوافدين من عموم الشعب.. الطرق احتضنت أصحابها..

محافظ الشرطة الفرنسية في المدينة.. لوسيان اوليفيري وقف مندهشا للأعداد التي غصت بها الساحات..

يا حضرة النقيب برونو، كيف لكل هؤلاء أن يجتمعوا بهذه الطريقة؟ أريد جوابا محددا؟ وما هذه الأعلام واليافطات التي يحملونها، الم نحذرهم من هذا الأمر؟

لا أعلم ولكن يا سيدي، لقد استغلوا فرصة الترخيص لهم للتظاهر.. كان من المفترض أن يضعوا إكليل الورد على أمواتهم في الحرب ضد النازية.. لكن..

لكن ماذا؟ ما كل هذا العدد.... من أين جاءوا؟

سيدي اليوم يصادف تجمع الناس في السوق الأسبوعي للمدينة وقد كان العدد قليل عندما انطلقوا من محطة القطار ولكن... لا أدري كيف تزايد العدد في لحظات.

الأوغاد... لقد اختاروا هذا اليوم خصيصا لهذا الأمر علينا أن نوقفهم في الحال ... لا أطيق سماع هتافاتهم.

حاضر سيدي.

كانت ملء حناجر المتظاهرين ممزوجة بزغاريد النسوة المشاركة تردد وتطالب الحياة لأرض مستقلة جزائرية. الكل هب مندفعا يريد الحرية والاستقلال لا غير...تطور جديد في لهجة المتظاهرين.

سيدي لوسيان الأعداد تتزايد وهم يطالبون.....(يتوقف ويقول) بالاستقلال وتحرير الأسرى السياسيين واسم مصالي الحاج على كل لسان ولقد وُضع علم خاص بهم في وسط المدينة ويحمله الآن أحد الشبان دون أن يكترث ...لا للجيش ولا الشرطة..

أيها النقيب...يجب أن يسقط، سأتولى أمره بلغ فرقة التدخل من الدرك أن تباشر بتفرقة المتظاهرين وتطلق النار مباشرة.. لا تردد علينا أن نصدهم لا يجب أن يبقى أحد في الساحة..

كان المتظاهرون يرددون .... جزائر حرة بكل الأصوات والأنفاس.. قلوبهم لم تكن ترى سوى من يعشقون ترابها.. لا يخشون شيء ...أرواحهم كانت تصعد إلى السماء برصاص القنص والغدر والتي عجزت عن كم الأفواه...كانت مشهدية تنبئ بالقادم المشرق رغم هول عدد الضحايا.

محمد الهادي (من فوج الكشافة الإسلامية) سي الطاهر .... *يا قائد ...لقد أُحرق العلم الفرنسيون استشهد الشاب بوزيد سعال وهو يحمل العلم الجزائري، لقد*

أطلق عليه النار عندما رفض الخضوع لأمر البوليس الفرنسي... لقد ظلت يداه مطبقتان بإحكام بعصا العلم التي كان يحملها.

لا إله إلا الله...إن لله وإن إليه راجعون.... رحمة الله عليه، يا رفاق علينا أن لا نتوقف رغم هذا الرصاص، إننا هنا لمطالبة هذا العدو ومن معهم من المستوطنين الوفاء بالوعود و مغادرة أرضنا ...اثبتوا يا إخوان فمن يسقط منا فهو شهيد، فلنردد جميعا.. وبنفس واحد.

جزائرنا يا بلاد الجدود نهضنا نحطم عنك القيود
ففيك برغم العدا سنسود و نعصفُ بالظلم والظالمين[1]

توسعت رقعة الاحتجاج ورُفعت الشعارات، تعالت الأصوات مطالبة بتقرير المصير...يتنكر المستعمر الفرنسي للوعود ويهتز ثم يجابه بأفظع جرائم التنكيل وبمختلفة الأسلحة والحملات العقابية من أجل إخضاع المدن كافة وحتى تلك القرى الصغيرة المحرومة من كل شيء.

لم تتوانى بعد ذلك عن دك سجونها بالمعتقلين فسجن مفدي زكريا مرة أخرى بحجج واهية أسوة للكثيرين من النشطاء والثوريين مرة بتهمة المساس بأمن دولة المستعمر ودام حبسه ستة أشهر ثم سجن مرة ثالثة بعد تلك الحوادث الدامية الإجرامية بذريعة الحث على إثارة الشغب.

كانت السنوات تمضي وقد رسمت حدادا على وجوه عموم الناس وفي وجدانهم على المدى الطويل، حزنا ينخر في قلوب شعب الجزائر على امتداد تراب بلاده المحتل لعقود طويلة، وجعا يزيد من بغض هذا العدو ومن معه ويعجل نحو خطوة أخرى إلى الأمام علها تبعث نورا يخترق كل هذه الظلمة.

فرنسا ظلت ماضية في سياسة التنكيل ومحاولة فرنسة النخب لجعلهم تحت رايتها وسطوة إمرتها، لكن ما حدث منذ عشر سنوات للناس أضحى منصة لهبة جديدة قد تكون القاضية لهذا العدو مهما كلف الأمر.

(1) أبيات من قصيدة جزائرنا: كتبها الشيخ محمد الشبوكي وهو شاعر ومناضل ضد الاحتلال الفرنسي وعضو في جمعية العلماء المسلمين.

كانت حصيلة تلك المظاهرات خمسة وأربعين ألف شهيد.. سقطت تلك الدماء في يد الله.. لكنها عبدت الطريق نحو الخلاص.

ربيع 1954

في مدينة الجزائر وفي بيت مفدي كان الحضور هذه المرة أكثر من ذي قبل، يشبه عودة الحياة في فصل الربيع.. امتلئ البيت بضيوفه وقد جمع رواد الفن والمسرح والناشطين السياسيين.. فهم في حقيقة الأمر جسد واحد لقضية واحدة.

رفعت الأكف لقراءة الفاتحة على أرواح من استشهدوا.. ذكرهم تسبيح أيضا.

(غير المغضوب عليهم ولا الضالين) صدق الله العظيم... بعد أن وضع نظاراته إلى جانبه فعيناه قد أدمعت، بدأ مفدي الحديث بعنفوان الشاعر المحرك للوجدان.

السلام عليكم يا إخوان، يرحم الله شهداء بلدنا الذين سافروا إلى الخلود وتزاحموا بأرواحهم الطاهرة ونالوا شرف الشهادة ...كانت أياما وسنوات عصيبة وها قد مرت فترة طويلة لكن ذكراهم حية فينا.. رغم أن هذا المستعمر لم يترك طريقة تعذيب أو قتل إلا وجربها في كل المناطق الجزائرية واعتقل الآلاف منا وقتل الذين تجرؤوا على تصور الجزائر دون فرنسا ويا ليتنا كنا معهم.

يا أخواتي ورفاقي، ككل مرة نكرر علينا أن نتحرك، أن نفعل أي شيء... أن نرد في أقرب وقت ممكن كل بطريقته ولا شك أن أمورا كثيرة تنجز وتنتظر ساعة الصفر... آمل أن لا تطول.

معك حق يا سي مفدي الظروف مواتية أكثر من أي وقت مضى وإن شاء الله لا تطول، أتذكر يا جماعة وكنت قد أخبرت أخي التوري عنها أن في منطقة قالمة عندما سلح جيش العدو المتطرفين من الأوروبيين كانت أشبه بميليشيا مدنية تقتل العُزّل وكانوا بمعية الجيش يرمون بالناس في فرن الجبس في المدينة وهنالك من الجرحى والأطفال من أعدموا بهذه الطريقة أيضا.

لا حولا ولا قوة إلا بالله فعلا يا سي لحسن والله يا جماعة هذه الأحداث كلما اسمعها ينتابني حزن شديد كلما اسمعها وكأنها اليوم فقط لقد كان الأمر غاية في الإجرام... البعض من السكان تم احتجازهم في الخلاء وأعطي لهم بنادق فارغة وتم تصويرهم لإيهام الرأي العام بأنهم خارجون عن القانون تم ضبطهم وهم يحملون السلاح...بعد ذلك قتلوا وقطعت رؤوسهم وقام الجنود الفرنسيون بأخذ صور إلى جانبها وهم في فرحة عارمة.

شعر مفدي بضرورة رفع معنويات الحضور وقف قائلا.. *إن المصائب قد عظمت والعدو فعل فعلته لكن علينا أن نعجل بإيجاد منافذ تهدم بنيان هذا العدو الجاثم فوق أرضنا.. أرواح شهدائنا تطوف فوق هذه الأرض تنتظر تحركا آخر.. هؤلاء القتلة لم يكونوا يتوقعوا تحرك الشعب بكل فئاته، اعتقد أنها البداية فقط والأمر لن يطول نحو هبة أخرى أكبر واشد وفاءا لمن سقطوا من الشهداء...واعلموا يا إخوان إن العدو لم يعد كسابق عهده الذعر باد على وجههم أكثر وأكثر وتلاحظون هذا في الطرقات سواء كانوا من العساكر أو المستوطنين.*

فعلا يا شيخ مفدي وكأنهم ينتظرون أمر ما ...

صحيح يا أخي حسان. أصبح العدو يخاف حتى من الأعمال الفنية التي تحرك وعي الأمة ولك جولات في السجون لأعمالك الوطنية.

الحمد لله شهادة اعتز بها.. آه لو تُعاد الكَرة مرة أخرى وننتفض يا شيخ مفدي.

إن شاء الله أراها قريبة يا إخوان.. تتوافر عندي أخبار مؤكدة خاصة بعد نشاط المنظمة الخاصة وتكوين اللجنة في الإعداد الثوري عبر مناطق عديدة في الجزائر، الإخوة في الشرق في صدد الاتفاق على أمر ما لا بديل فيه عن الكفاح المسلح.

كان ابتسامة الفرح قد عمت وجوه الحاضرين فنصف خبر يثلج القلوب لكن ما لبث أن تساءل البعض...

فلربما تكون أخبار يروجها العدو لتبرير الاعتقالات وأنواع القتل التي يمارسها بشكل يومي.

كان رد مفدي زكريا سريعا.. وبلغة الواثق *لا لا هذه معلومات دقيقة وسرية يا إخوان، لا اعرف تفاصيلها ولكن هنالك شيء ما يحضر على أسس متينة فما اخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة.*

جرعة التفاؤل عادت مرة أخرى.. قال التوري بصوت عالي وقد مدّ الكلام بروح البهجة.. *إن شاء الله.. لا بديل عن الكفاح المسلح.. كم نتمنى ذلك، اليوم قبل غدا.. الشعب متعطش للحرية..*

كان حسين ينظر للجميع وهو يقول *والله يا أخي مفدي مثلما يجتمع أهل الفن عندك وتلمس الروح الوطنية في حديثهم أتمنى أن يجتمع كل الشعب على كلمة واحدة ويكون الخلاص من هذا المستعمر الغادر.. مجازره بقيت معلقة في ذاكرتنا، الشعب أيضا يعي واجباته وينتظر الإشارة فقط.*

فعلا كلامك صحيح...مثلما في المسرح، الجمهور هو الأساس أيضا في الوطن الشعب هو الأساس لن ينسى أن يأخذ بثأره ويحرر أرضه.

اسمعوا من فضلكم كلماتي هذه..

ولم ننس في أربعين وخمسٍ... ضحايا المذابح في يوم نحسِ
طربنا مع الحلفاء اغترار.... وقمنا نصفق في غير عُرْسِ
فكانوا مع الغدر عونا علينا... ودرسا لقادتنا أي دَرْس
وكانت مجازرهم بسطيف... وقالمة للشعب دقات جَرْس
فعطل صوت الرصاص اللغى... وأنطق ألسنة غير خرْس
فقامت تعبد أكبادنا... طريق التخلص من كل رجس.

تمر الأيام والأشهر وشرق البلاد كوسطها وغربها وجنوبها تنتظر الصبح القريب، الكل كان ينسق بعيدا عن أعين العدو ومن معه من الحركة [1] الذين يسبحون بحمد المستعمر وينقلون كل صغيرة وكبيرة ليكسبوا ود قياداتهم.

كما مفدي ورفاقه كانت الجزائر تعج بحركة سياسية كثيفة وقد أخذت طابعا سريا أكثر نضوجا.. كانت تحتاج فقط إلى صلة الربط بينها لتوحيد قواها فالهدف بين والمشروع واحد.

في شرق البلاد لم تغير السنوات والظروف من ذلك الشاب الاوراسي بن بولعيد بل زاد إيمانا بحتمية النصر وبقي محافظا على حلمه الأكبر في إدارة قتال مشروع على ارض بلاده ضد عدو طال أمده لو تعاقبت على وجوده أجيال قد خلت، لأجل ذلك سعى رفقة العديد من الرجال لتغير طريقة التعاطي مع السلطة الفرنسية.

(1) الحركة: أو حركي هو مصطلح من الدارج الجزائري يعني العميل الذي خان بلاده وتآمر ضدها، استعملتهم فرنسا من أجل قمع المجاهدين الجزائريين والتجسس على عموم الشعب

الظروف كلها تغيرت والعودة إلى الوراء أمر غير مسموح به، هي دماء الشعب التي سالت .... جددت البيعة لتحرير الوطن وأيقظت من جديد روح المقاومة والمواجهة المباشرة مرة أخرى.

اجتمع بن بولعيد مع بعض الرفاق في إحدى مقاهي قسنطينة شرق الجزائر، كان لقاءا هاما لبدء حلقات الاتصال ...بدأ يتكلم ويراقب المكان لا يريد لفت الانتباه.. كان ينظر إلى وجه إبراهيم ومسعود فما يقال عن الخطوات الميدانية أمر وجب التقيد به.. دق على الطاولة وهو يؤكد..

لا يمكن اعتبار أن طريق الاستقلال يبدأ عبر مراحل التفاوض، والظروف كما تعلمون قد تغيرت ولم يعد مكان إلا للبارود ...ينتظرنا جميعا عمل طويل جدا لكن إن خضنا المواجهة وبنفس واحد فنحن في الطريق الصحيح.

كلام مهم يا سي مصطفى الشعب يشعر بالذلة والهوان لما فقده من كرامة وأرواح ولقد طال الانتظار وهذا أمر محزن للغاية .... ولا يزال الوطن تحت أيديهم كل هذه السنين.. لكن من يكون قائدا؟ وماذا عن السلاح هل تم تأمينه؟

لا تحزن بعد الآن يا أخي، سوف نقول كلمتنا إذا ما كنا يدا واحدة، كن واثقا يا سي إبراهيم الناس تنتظر البداية فقط وأحداث عام 45 ستكون ملهمة لكل ثائر ...والله يا إخوان حسب تجربتي وقناعتي ...لا قائد ولا مُلهم إلا الشعب هذه قاعدة يجب على الجميع التحدث والعمل بها وحدها طوق النجاة، المهم أن نحقق أهداف ما نجتمع من اجله ونرسم طريق التحرير عبر الكفاح المسلح ولا سبيل غير ذلك.

أما عن السلاح لقد سافرت لهذا الغرض والكمية موجودة وتم تأمينها من معابر في الصحراء وبإحكام، يجب أن أقوم بخطوة مهمة وهي التشاور مع باقي قيادات النواحي في مختلف الجزائر...يا سي مسعود دون في ذاكرتك سيكون معنا رجال في التنسيق وربط الاتصال سوف يأتون لزيارتك في البيت على أساس أنك مريض.. بعض التوجيهات سوف يخبرونك عنها.. أما أنت يا أخي إبراهيم في علبة الكبريت هذه كلمة سر سوف تصادف امرأة غدا في مثل هذا الوقت عند محل الزهور الذي أمامنا سوف تعطيك رسالة بطريقتها من المفروض تصل اليوم.

إن شاء الله وهو كذلك يا سي مصطفى، ربما تأخر الوقت الآن وعين العدو يزداد نشاطها في الليل، من الضروري أن نغادر هذا المكان.

فعلا يا إخواني.. علينا أن نفترق من هنا فلا يجب أن نرجع سويا ولا من نفس الطريق، سوف أغادر إلى مدينة الجزائر لأجتمع ببعض الإخوة هنالك، ادعوا لنا بالتوفيق.

بلغهم السلام وسوف أتابع التطورات من هنا.

سلام، في أمان الله الآن.

كانت الجزائر في ذلك التاريخ وفي تلك الأشهر تجمع قواها وتبحث عن مكامن القوة سعيا لتعبيد الطريق وإزالة العراقيل من أمامها فلم تستثني أن تتواصل مع أشقائها الثورين من العرب فالخطوة وإن كانت محلية وبيد الشعب لكنها تحتاج إلى دعم خارجي كيف ما كان.

حب الوطن كان يسير في عروق مفدي أسوة بالكثيرين في الجزائر.. الكل كان يتطلع للحرية مع مطلع كل صباح جديد.

يتوجه الحاج قدور وكان إماما وخطيب أحد المساجد إلى محل مفدي للأقمشة والذي كان في حي القصبة في عمق مدينة الجزائر.. كان من زواره الدائمين والحريصين على معرفة أخباره وتفقد أحواله.. صادف ذلك اليوم وجود مساعد مفدي في المحل لوحده وكان اسمه عبد الله...تغير وجه الحاج قدور ظناً أن مكروها قد أصاب مفدي..

السلام عليكم.

وعليك السلام حاج...مرحبا بك.

شكرا ولكني.. لا أرى الشيخ مفدي عادة أجده على هذا الكرسي، هل هو موجود.. هل هو بخير؟

نعم.. نعم لا تقلق إنه في الداخل.

رفقة من؟

لا أحد.. منذ الصباح الباكر وهو في الداخل رفقة أوراقه وقلمه.. اعتقد انه ينظم شعرا..تفضل

نادى مفدي من داخل حجرة صغيرة في أحد زوايا المحل... يا حاج قدور ...تفضل بالدخول.. لقد عرفتك من صوتك.

هاه.. مشاء الله أذنك الموسيقية تميز بين الأصوات أيضا ..أنا قادم، بسم الله... السلام عليكم.

وعليك السلام والإكرام تفضل.. استرح.

الله يزيد فضلك.. شكرا، كيف الأحوال أخي العزيز؟ دائما يلفتني تسمية المحل.. السلام لتجارة الأقمشة من قطن وصوف وحرير وديباج.. جميل جدا أنت.. حتى في التجارة شاعري وتحرك الوجدان، كل مرة أود أن أقول لك ذلك لكني أنسى.. فكلام فيه سحر غريب. روائح العطر التي تفوح تجذب حتى من ليس لفكرك مريد.

شكرا.. وما الإنسان إلا مجموعة من المشاعر نجعلها بالكتابة تنبض إبداعا وخيرا فيبارك الخالق فيها ويجعل تأثيرها ايجابي ووافر.. الحمد لله على كل حال، أخبرني كيف حالك أنت أيها العجوز هاه، أما زلت تدرس أبناء الحي؟

اجل لا أزل ادرس، لكن بشكل سري.. الأمر غاية في الخطورة هذه الأيام فلقد زرع هذا العدو العيون التي تراقب في كل مكان.. المساجد والكتاتيب والزوايا أضحت من المحظورات وتقلص عددها ولم أستطع أن أؤم الناس.. والله لا أقدر أن أرى الظلم على أبناء بلدي وأن أقول غير ذلك.

معدنك أصيل يا حاج وأنت أدرى الناس أن الحق سيدافع عن نفسه وينتصر.

نعم يا صديقي المبدع.. إن جولة الحق وإن طالت نهايتها النصر...كيف أحوال التجارة، هل تعلم أن فضولي يدفعني أن أسألك لما هذه الخلوة؟ أريد سماع ما كتبت وإن كنت اعلم روعة تجانس اللفظ عندك وإيقاعك السليم والذي يعبر عن جوهر أبياتك.

ها قد أصبحت شاعرا هاه ...والله يا حاج قدور الحمد الله على كل حال.. التجارة ترتفع وينخفض منسوب نشاطها بحسب الأحوال فالذين أخذوا بضاعة دون

الدفع أعانهم الله فقد أنهكتهم ظروف البلاد ولكن الجميل في الأمر أنها جعلتني أجوب العديد من المدن والقرى واقترب من الناس وهذا ما زادني عشقا لأرض بلادي.. أما سؤالك عما أكتب فلم أتمم بعد ما انحت من قصيد، خلوتي هذه مثلما أسميتها هي اليوم فقط لإضافة بعض التعديلات على نص مسرحية لأحد الرفاق. يعني خلوة مسرح ثوري، انتظر سأسمعك شيء آخر. هذه الأبيات كتبتها منذ فترة واعتقد أنها ضرورية الآن أكثر من أي وقت مضى فقد وصلت فيها المشرق بالمغرب الكبير.. أرى فيها أن الوحدة في كنف العروبة أمر ضروري والآن نحن بأمس الحاجة إليه كي نكون كالبيان المرصوص يشد بعضه في مجابهة هذا العدو.

قلت:

رسول الشرق قل للشرق إنّا ... على عهد العروبة سوف نبقى
وإما بالجزائر أنكرونا ... سنخرق وصمة الإجماع خرقا
وإنّ الشامتينَ بنا أبادوا ... أعزّ ديارِنا نسفًا ومحْقا
وإنّا في الجزائر خير شعب ... عروبته مدى الأجيال وُثقَى
وإنّ الوحدة الكبرى ... إذا ما تحررت الجزائر سوف تبقى.

جميل.. جميل جدا، لقد أصبت كالعادة وهذا الحلم يراودنا جميعا.. والله إني لا أرى فيك شاعرا جزائريا أو مغاربيا فحسب ولكن امتداد كلمات تتخطى أبعد الحدود.

لم يفارق الحياء الذي إكتساه مفدي من صغره.. فصدق كلماته تلامس القلوب والضمائر بمجرد أن يخطها بقلمه...

شكرا يا حاج قدور.. هو نفس العدو بأسماء مختلفة في كل الأرجاء العربية من وضع الحدود لكنه أعجز أن يضع للقلوب حواجز سوف أضل بشعري أجوب الخواطر بعمق القضية من المشرق إلى المغرب.

أحسنت الجزائر بحاجة إليك والأجواء تنبئ بغيث وافر جود عليها بما استطعت وأكثر.

إن شاء الله الأخبار مطمئنة، بعض الناس باعت ما تملك وقاموا بجمع ما تيسر من المال وتحصيل بعض القطع من السلاح.. انه ضير كبير قد تراكم لابد أن ينجلي.

فعلا يا شيخ مفدي اليوم الموعود، أتمنى أن يحدث قريبا.

إن شاء الله الأجواء متاحة يا سي الحاج.. اشعر بذلك.

عيون الناس كانت تتناقل إشارات غير عادية والتحركات المحسوبة تنبئ أن الأمور تقترب أكثر فأكثر وستختلف عن باقي الأيام، خطوة إلى الإمام كانت كافية لعراب الثورة بن بولعيد لخرق جدار المراقبة لدى العدو واستطاع بروحه الوطنية العالية جمع شمل قيادات النواحي على امتداد جغرافيا الجزائر ليضع بذلك أولى البدايات المؤسسة للعمل المسلح ضد جبروت المستعمر الفرنسي.

في شهر جوان/حزيران اجتمع القادة الاثنين والعشرين في مدينة الجزائر.. كل من حضر تملكه شعور انه يولد من جديد، كان الياس دريش في منزله يرحب بالحضور ويتفقد إن كان هنالك من تخلف...*تفضلوا جميعا.. تفضلوا بالدخول يا رجال أهلا بكم.. الحمد الله كل الجزائر هنا يا سي مصطفى.*

بعد أن ساد شيء من الصمت نظر مصطفى بن بولعيد بابتسامة أخوية للجميع .... *السلام عليكم يا إخوان...عظيم، الكل قد التحق بالاجتماع مرحبا بنا في بيتك يا سي الياس ولأن الوقت ليس في صالحنا فلنبدأ.. بسم الله الرحمن الرحيم والحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نشكر الله تعالى أننا استطعنا أن نلتقي لأول مرة وهذا يعتبر انجاز في حد ذاته، يجب علينا أن نتحدث اليوم عن كل التفاصيل وذلك باعتبار أن جميع المناطق ممثلة في هذا الاجتماع... يا إخوان علينا الحسم مهما كانت التكلفة يجب أن نصل إلى نتيجة تعبر عن رغبة شعبنا وإرادته.*

كانت كلمة الحسم مبهمة عند البعض.. تبادل النظرات أوحت بذلك. لكن بن بولعيد أو السي مصطفى أستبق التساؤلات بجواب شافي... *ما المقصود بالحسم؟ الحسم هو أن نشمر على السواعد ونعمل على تفجير الثورة في أقرب وقت ممكن وهذا الأمر يستدعي منا تضحيات بالأموال والأهل والأرواح...والذي يرى أنه غير*

مستعد لذلك فله حرية الانسحاب من الآن...تفضلوا، باب النقاش مفتوح للجميع.

رفع السي الطيب يده... أنا أوافقك الرأي، لقد انتهجنا كل الطرق السلمية من مفاوضات وانتخابات ووسائل قانونية، كل واحد منا عمل رفقة الإخوة لإيصال صوت الشعب ولكن للأسف فرنسا الاستعمارية ردة فعلها دائما الحديد والنار ولا تعرف غير هذا.

كان إلى جانبه أحد الرفاق ويدعى بوجمعة بعد أن وقف موافقا على ما قيل ... صحيح ومجازر الثامن من شهر ماي أكبر دليل، أنا أرى أن الحركات الوطنية أثبتت فشلها ولم تستطيع توحيد الشعب على فكرة محددة وجامعة علينا بالعمل المسلح وأن لا نتأخر كثيرا.

ابتسامة بن بولعيد لم تفارق محياه.. كانت دليل رضا عن ما يسمع.. فهذا التوافق والحماس هو السبيل لتحريك الشارع مرة أخرى...

الهدف واضح يا إخوان والمطلوب هو طرد المحتل واسترجاع الهوية الوطنية ولا يتحقق هذا الأمر إلا بقوة السلاح.

المشكلة في الأحزاب والاصطفاف يا السي مصطفى.. وأمر الثورة يجب أن يكون تحت مظلة واحدة أليس كذلك؟

فعلا نقطة مهمة تحدث عنها الأخ مراد، نعم علينا تجنب هذا الأمر وتوحيد الكل ضمن فكرة العمل الميداني المسلح.... عدم توفر السلاح الكافي أيضا مشكلة في حد ذاتها لكن يمكن تجاوز هذه المشكلة أريد الآن من الحضور أن يعبروا عن الموافقة برفع اليد إن أفضى هذا الاجتماع إلى بداية حقيقة لثورة التحرير الجزائرية؟ ...الجميع إذا، جيد.

الحمد لله، هنالك توافق وهذه بداية مهمة.

فعلا بداية مهمة يا سي الطيب، أمر آخر قبل أن ننهي هذا الاجتماع، علينا يا إخوان أن ننتخب الآن منسق وطني للثورة وللجميع الحرية في اختيار الشخص الذي ترونه الأحق لهذه المسؤولية.

كانت الأيام تتسابق والأسابيع تمضي ولا يزال بن بولعيد يحافظ على وتيرة نشاطه في كل الاتجاهات والتي تفاعلت بشكل عفوي وفطرة ثورية عبر مختلف المناطق الإستراتجية في الجزائر فاكتمل مشروع التأسيس الذي سعى من اجله ولم يبقى سوى الميدان ترجمان لما يدور في ذهنه رفقة إخوانه المناضلين.

جاء شهر أكتوبر حاملا معه تشاورا استراتجيا جعل الشعب على بعد خطوة واحدة نحو المواجهة المباشرة وفق تنظيم محكم معول عليه.

اجتمع بن بولعيد بالرفاق الستة وقد بدأ الكلمة وهو واثق أن خطوة الألف ميل قد قطعت ولم يبقى سوى أيام قليلة تعبر عن كل ما تحمله السرائر تجاه هذا الوطن.

الحمد لله أننا استطعنا أن نلتقي مرة أخرى استطعنا التنكر للوصول إلى هنا وباغتنا البوليس الفرنسي.

اليوم سنحدد أمورا مهمة تكون منصة لما هو قادم علينا أن نضع اسما للتنظيم وموعد اندلاع الثورة. لك الشكر الجزيل يا سي الطيب على العمل الجبار الذي قمت به تحت إطار التنسيق لهذه الثورة التي إن كتب الله لها التوفيق ستكون مباركة وتبقى خالدة في التاريخ.

هذا واجب على عاتقنا أخي مصطفى وما قمنا به تكليف من الوطن نحو الشعب، الإخوة في القاهرة يرون أن المناخ مناسب لاندلاع العمل المسلح، بن بلة وأيت أحمد وخيذر وتوفيق على أتم الاستعداد للتنسيق الخارجي لدعم الكفاح، اعتقد الآن من المهم أن نبدأ بالأمر السهل أي أن نبدأ بطرح اسم التنظيم، ما رأي الأخ بن مهيدي؟

والله اعتقد أن حركة الوحدة والعمل التي كنا نعمل تحت إطارها سابقا يجب أن نحافظ عليها كمحتوى فقط.

كلامك صحيح يا سي لعربي من الضروري المحافظة على المبدأ، أما تغير الأسماء لا يهم كثيرا فالشعب في منطقة القبائل كلهم مجندون وينتظرون الأوامر فقط تحت أي اسم كان.

هذا حافز مهم السي كريم، علينا تكوين اسم قوي ينشأ مع الثورة ويبقى راسخ إلى الأبد.

ما يميز بن بولعيد انه كان يعجب بلحظات النقاش ويشجعها سعيا للتحفيز فالجزائر تستحق كل الجهد ووافر التفكير لجعلها حرة مستقلة..

ما رأيكم في اسم .... حزب الثوار؟

مصطلح الثورة مهم.. أنا اقترح حركة التحرير، اعتقد انه من الضروري أن يكون هنالك كلمة التحرير وترتبط بالكلمة الوطن.

وأيضا من الضروري عدم استعمال كلمة لها علاقة بالأحزاب اعتقد جبهة الاستقلال الوطني أفضل لأنها تفتح الباب لكل المناضلين مهما كانت انتماءاتهم السياسية.

اعتقد أن رأي السي مراد صائب، الاستقلال يأتي نتيجة التحرير وعملنا تحرري محض، اعتقد أن هذا هو الصواب.... هل نحن

متفقون يا إخوان؟

أنا مع رأي أخانا لمصطفى ...هكذا الأحزاب لن تجد لنا عذرا للانضمام.

بالفعل.. شكرا، إذا ما رأيكم أن نسمي التنظيم.. جبهة التحرير الوطني ***Le Front du Liberation National*** *أي* ***Le F. N. L*** *وأيضا جيش التحرير الوطني كي يكون للثورة ركيزتين أمام العالم سياسية وعسكرية، اتفقنا؟*

كانت الأمور تنتهج حركية سريعة وهذا ما كان يفرح بن بولعيد.. فالتوافق في الآراء انتصار بحد ذاته وربحا للوقت الثمين الذي ينتظر الثورة إن انطلقت.

أرى أن الكل موافق، ماذا عن الموعد وساعة الانطلاق؟ من جهتي.. اقترح أن يكون بعد أسبوع من الآن حتى يكون لدينا متسع من الوقت، هل كافية هذه المدة، ما رأيكم؟

اعتقد أن التاريخ أمر مهم حتى يبقى في ذاكرة الناس أرى ليلة الفاتح من الشهر المقبل ...أول نوفمبر تاريخ سوف يحمل من الرمزية والدلالة أو قبله بأيام قليلة علينا أن لا نطيل الانتظار.

أنا من جهتي موافق يجب أيضا أن نخط بيانا لما تم الاتفاق عليه...ليصل للشعب...يجب أن تشتعل النار في مختلف مناطق البلاد كل بحسب الإمكانات

المحلية لكل مجموعة من المجموعات الثورية الموزعة في خارطة المناطق الحربية.

عظيم، اتفقنا شكرا لكم إخواني. كريم ورابح وديدوش، سنكلف السي الطيب وبن مهيدي أمر البيان... أما الآن سنلتقط صورة تذكارية لهذا اللقاء المبارك.. توكلنا على الله.

... مقتطف من بيان الثورة.

إلى الشعب الجزائري في أول نوفمبر 1954.

بسم الله الرحمن الرحيم.

" أيها الشعب الجزائري، أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية، أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا . نعني الشعب بصفة عامة، والمناضلون بصفة خاصة . نُعلمُكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكُم الأسْبابَ العَميقة التي دفعتنا إلى العمل، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا، ومقومات وجهة نظرنا الأساسية التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي.

ورغبتنا أيضا هي أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الإمبريالية وعملاؤها الإداريون وبعض محترفي السياسة الانتهازية. فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية، بعد مراحل من الكفاح، قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. فإذا كان هدف أي حركة ثورية في الواقع هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحدا حول قضية الاستقلال والعمل.

أما في الأوضاع الخارجية فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا التي تجد سندها الدبلوماسي وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين. إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال إفريقيا. ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل. هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقيق أبدا بين الأقطار الثلاثة. إن كل واحد منها اندفع اليوم في هذا السبيل.

أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركب فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث، وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة، نتيجة لسنوات طويلة من الجمود والروتين، توجيهها سيئ، محرومة من سند الرأي العام الضروري، قد تجاوزتها الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحا ظنا منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية.

أيها الجزائري إننا ندعوك لتبارك هذه الوثيقة، وواجبك هو أن تنضم لإنقاذ بلدنا والعمل على أن نسترجع له حريته، إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك، وانتصارها هو انتصارك.

أما نحن العازمون على مواصلة الكفاح، الواثقون من مشاعرك المناهضة للإمبريالية، فإننا نقدم للوطن أنفس ما نملك."

كان ذلك الاجتماع بمثابة اللقاء الحاسم لقلب الطاولة على المستعمر، فهم صلة الوصل بالعديد من القيادات في الجزائر وخارجها، المهمة كانت على نطاق أوسع جعلت من الشعب شريكا لتحقيق الهدف.

جاء عقد التحرير من خلال بيان أول نوفمبر والذي حدد ساعة الصفر لبداية المعركة، هي ليلة الاثنين من عام 1954 تنبئ بسماع صوت آخر يمتزج برائحة البارود قد يرفع الصمم عن تلك القضية العادلة.

على غير العادة بدا مفدي في منزله بحي Jules Cambon في القبة بمدينة الجزائر مرتبكا قلقا على بلاده. لعل الأفكار التي تعتريه جعلت منه يبحث عن وسيلة الدعم لإعادة إحياء هذا المشروع المنتظر. عنوان عريض مضمونه تحرير البلاد.

عفوا تأخرت قليلا... مرحبا بك، تقدم الغداء جاهز الآن. أود أن أشكرك يا سي الهاشمي فقد هدأت من روعي فو الله ما تقوله بالغ الأهمية وإن تحقق فلقد جاءت اللحظة التي انتظرها منذ زمن طويل ولا سبيل للتراجع إن تطورت الأمور، مهما كانت التضحيات....

ما وصلني من أخبار يا أخي مفدي أن الجميع أصبح مستعدا سياسيا وعسكريا وسوف يحدد موعد سري لبدأ المعركة.

هذه أخبار تفرح القلب. والله اشعر بها ليلا نهار وأنا معهم قلبا وقالبا بدمي وروحي ومالي وقلمي متى ما سمحت الفرصة، هذا العدو قد أطبق على أنفاسنا ولم يعد يصغي إلينا ولا يجابه إلا بمنطق السلاح.

أحسنت، إن كان هنالك تنظيم محكم سوف تتغير أشياء كثيرة.

قوتنا في شعبنا متى ما تعاون الجميع واتحد لن يوقفنا أحد.. الالتفاف مع الشعب هو الضمانة.

قام مفدي بسرعة وقد جلب معه ورقة وقلم كالذي يتحضر لأداء طقس مقدس...

سأدون كل أسماء الفنانين والكُتاب علينا أن نجتمع الليلة ونطرح أفكارا عن سبل الدعم من خلال مجالنا هذا وأن لا نبخل بمالنا وأرواحنا. يجب أن نكون على أهبة الاستعداد نحن أيضا.

كلام جميل ما رأيك أن نلتقي في مقر الجمعية وعلى خشبة المسرح نتدارس الأمور وكأننا نحضر لعمل مسرحي هكذا نبعد الشبهات عن مجلسنا.

فكرة جيدة، الجدية والحرص والسرية مطلوبة... سوف نتولى سويا إخبار الجميع باللقاء دون ذكر السبب وكأنه لقاء روتيني على خشبة المسرح.

وهو كذلك... توكلنا على الله.

اتفقنا إذاء أكمل غذاءك قبل أن يبرد.

استمرت الأمور تسلك طريقها بثبات وتسري على قدم وساق، بنفس واحدة وخطوات واثقة وأهداف مسطرة لتحقيق آمالها وكأنها لشخص واحد لا فرق لأحد على أحد إلا بمنسوب الوطنية التي تعتريه. فالمشروع واحد والغاية واحدة أيضا.

في عمق الشرق الجزائري تحديدا في منطقة أريس كانت ليلة الفاتح من نوفمبر تختلف عن سابقها ويقينا تختلف عن ما بعد ذلك فالأحداث قد تتسارع دون توقف. كان واثقا بن بولعيد قبيل ساعات من انطلاق العمل المسلح.

إخواني ورفاقي.. لم يبقى الكثير من الوقت من أراد فليختار اللباس الذي بمقاسه أو يبقى بالقشابية [1] ويثبتها جيدا لكيلا تعيق حركته وبأخذ قطعة سلاح، هيا بسرعة يا رجال.

كانت كل الخطط والأفكار مدونة في ذهن بن بولعيد ولكل سؤال جواب فالمهمة كبيرة تحتاج اليقظة والدقة على حد سواء.

سي مصطفى لم يتبقى سلاحا كافيا لتوزيعه على لخاوة [2] ما العمل؟

اعلم ذلك فلقد تم توزيعه على المنطقة الثانية والرابعة، سوف ندبر أمر السلاح يا سي البشير، أخبر لخاوة أننا سنجتمع بعد لحظات في مكاننا المعتاد.

في مدينة الجزائر ساد صمت رهيب عشية ذلك اليوم فغدا يوما آخر. الكل من حيث لا يدري كان ينتظره، كان مفدي قد استشعر بحدس العاشق لوطنه أن أمر ما سيحدث، رفع رأسه للسماء فهي الملاذ واليه يصل حديث الروح...كان يناجي بقلبه وبعبارته التي يغرفها من شعره...*يا رب أسألك أن تمنحنا من خزائنك هبة تحمل عاصفة ثورية ويتبعها غيث وافر يريح البلاد والعباد من هذا المستعمر الغاشم بصفة فورية ويمنحنا نعمة تحريرية...كان ينتظر رفاق الفن في بيته للبحث عن سبل مواكبة الثورة إن اندلعت.*

في الضفة الأخرى بقي بن بولعيد حريصا لآخر دقيقة على تفقد كل الأمور لحظة بلحظة.. مُعلنا بدأ قتال التحرير..

بسم الله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وعلى آله ومن والاه، يا لخاوة لقد أتى اليوم الذي كنا ننتظره لتحقيق تطلعات الشعب من اجل الحرية والاستقلال.

نحمد الله أننا اتخذنا هذا القرار ...في هذه الليلة سوف تُعلن الثورة في ربوع كل الجزائر...تأخرنا كثيرا.. يجب أن يتكلم البارود في كل مكان.

(1) القشابية: وهي لباس تقليدي يعوض البرنوس ينسج بطريقة حرفية من الصوف الخالص والوبر يقي من برودة الشتاء يسمى في بعض المناطق الأخرى بالجلابة.

(2) الخاوة: يقال لخاوة في اللفظ الشعبي وهي مدلول عام يقصد عموما الإخوة أما جزائريا خصت الكلمة تعبيرا على رابط الإخوة بين الفدائيين وعموم المناضلين.

(تحيا الجزائر، تحيا الجزائر) كان صوت المجاهدين الذي تعالى بنفس واحدة...حماسة بداية القتال لأجل تراب أرض الوطن.

نحن معك يا سي مصطفى لأجل بلدنا الجزائر عاهدنا الله وعاهدناك، يجب أن يعلم كل العالم أن هنالك شعب يكافح ويناضل.

بارك الله فيك يا سي علي، صحيح يجب أن تصل رسالتنا أننا شعب نناضل ونقاتل لاسترجاع أرضنا وحريتنا وكرامتنا، لكن لا يخفى على الجميع أن المعركة سوف تكون طويلة وشاقة وفي هذه اللحظة كل قيادات النواحي [1] في الجزائر تتأهب للانطلاق بعد دقائق لضرب العدو ضربة رجل واحد..

الخاوة في سهل متيجة أعدوا العدة أيضا السي بوعلام استكمل إعداد المتفجرات والأخ ديدوش قد قام بعمل جبار في تدريب الأفواج ووزعت العمليات في منطقة تواجده، أما في البليدة أيضا السي سويداني رفقة من معه قد تحصلوا على رسم تقريبي لثكنة عسكرية هنالك لتفجيرها وانظم إليهم أفواج دعم من منطقة القبائل.. وفي الغرب الوهراني أيضا الكل جاهز..أقول لكم هذا لتعلموا أن القلوب والأرواح اجتمعت للنصر أو الشهادة.

تفصيلك هذا محفزا جدا، نحن لها يا سي مصطفى إن شاء الله النصر الكبير.

تحيا الجزائر، تحيا الجزائر .....كلنا أبناء هذا الوطن لن ندخر جهدا.

أحسنتم بهذه العزائم لا بديل عن النصر " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" صدق الله العظيم

أوصيكم ...سلاحهم ذخيرة لنا وأن تتكاثفوا كجسد واحد...إننا نلبي نداء الوطن.

هيا يا رجال الكل ينطلق بحسب الموقع الذي حدد له، على أن نلتقي إن كان في العمر بقية في هذا المكان بعد إتمام المهمة .... يجب أن نستمر وإن استشهد الكثير منا.. في أمان الله جميعا...تحيا الجزائر.

(1) النواحي أو الناحية العسكرية: عشية انطلاق الثورة قسمت الجزائر إلى خمسة مناطق جغرافية على رأس كل منطقة قائد.

كانت آخر جملة في هذه الليلة.. علها خير من عقود طويلة، عاد فيها أبناء هذا الوطن للمجابهة والمواجهة بما تيسر من السلاح.. فارق العقيدة وشرعية الحق داعم آخر لهؤلاء الثائرين.. كل بطريقته.

بدأ صوت الرصاص يدوي في كل المناطق والأرجاء، كانت المراكز العسكرية الفرنسية تتلقى الضربات في جُنح الليل من مختلف الجهات في القرى والحواضر وكأنه عزف منفرد لبندقية واحدة.

أما خارج الحدود وبعدما خُطى البيان كان من الضروري أن يعبر المسافات ليصل إلى الأسماع العربية جمعاء ويكون عقد الكفاح الذي يُحرك الشعب ويجعلهم حليف الثوار وبيئته الحاضنة.

إذاعة صوت العرب في القاهرة واكبت هذا الحدث المهم بكل ما أوتيت من مشاعر، كان مكتب مسؤول الركن المغاربي محمد عبد الفتوح، يعج بحركة غير مسبوقة، الكل يسأل عن مدى تأثير ما أذاعه احمد سعيد منذ لحظات.

هذا البيان يا أستاذ أحمد يا سعيد والمكتوب بخط اليد قوي جدا وفيه ما يكفي لاندلاع حرب طويلة وبداية الكفاح المسلح لتحرير الجزائر.

يا رب يا أستاذ محمد، فعلا لقد كنت اسما على مسمى سعيدا ومحظوظا بقراءته... لقد أذيع بشكل مكثف وفي كل مرة اتلوه يتملكني نفس الشعور فعلا سيكون له تأثير كبير...هل تعلم عندما احضره أحد أعضاء جبهة التحرير واسمه محمد بوضياف ويقال له السي الطيب، انتظرت ثلاثة أيام لقراءة البيان، الأمر كان سريا جدا وتأخر لأسباب هنالك في الجزائر.

ولكن لما انتظرت لم تخبرني بالأمر؟

كان الأمر سريا ...في البداية شعرت باليأس فالبيان بين يدي ولم اقرأه.. دُعيت للاجتماع بقيادة رئيس دائرة الشؤون العربية للاستخبارات السيد فتحي ديب وكان قد اتصل به السيد احمد بن بلة يخبره عن أسباب التأخير التي لا أعلمها وتحدثوا عن اتفاق لقراءة البيان، حتى سيادة الرئيس جمال عبد الناصر كان قلق، لكن الحمد لله مع إعلان الأخبار العالمية عن العمليات الفدائية في الجزائر أذعت البيان.

إذا كان البيان مرتبطا بالعلميات؟

اجل اتفقوا على 80 عملية متفرقة بما في ذلك بعض العمليات في العاصمة، سيادة الرئيس رأى أن بيان بهذا القوة يجب أن يرافق بداية العمليات واعتراف فرنسا بوقوعها.

وأنا بدوري سمعته أكثر من مرة أمل أن يرسم تاريخا جديدا للجزائر تنعم فيه بالحرية وتأكد أن هذا المستعمر ومن يدور في فلكه سوف يجابه بعنف هؤلاء الثوار ويحرق كل شيء بما في ذلك دعم مصر لأجل إيقاف المعركة.

فعلا.. لكن متى ما انطلقت الشرارة الأولى لا اعتقد أن هنالك مكان للتراجع أو الاستسلام.

يا رب آمل ذلك قلوبنا وأصواتنا ودعاؤنا معهم.

إن شاء الله، المهم تفضل هذا جدول البرامج لهذا الشهر وتوزيع الأناشيد الثورية.

رفعت الأكف إلى السماء تضرعا وشكرا لهذه البداية.. كان مفدي واحد من أبناء الجزائر المناصرين لهذا التحرك المنتظر.. نوفمبر صنع منعطفا مُهما باغت فيه العدو والذي لم يتوقع أن يثور الشعب مجددا بعد تلك المجزرة التي ارتكبها منذ عقد من الزمن.

إنها أيام مباركة يا سي مفدي.. قتلى العدو في ارتفاع والخسائر في كل الاتجاهات.. يا شيخ مفدي هل تسمعني؟؟

نعم نعم.. عفوا يا حاج قدور. استرح، كنت اطلع على هذه الصحف الفرنسية.. كلها نفس التوجه. تحاول أن توهم الرأي العام من شعبها وكل من يدور في فلكها. أن ما يقوم به ثوار الجزائر ما هو إلا أعمال تخريبية.. انظر كل العناوين تضعه تحت خانة الإرهاب...خسئوا.. ندافع عن أرضنا وعرضنا وحريتنا وننعت بالإرهاب.

هذا القول يا سي مفدي لتبرير إجرامهم وبطشهم طائراتهم تقصف المدنيين في قراهم.. الكثير من العزل نزحوا إلى الحدود.

صحيح.. حماهم الله من بطش هذا الظالم المستبد.. نوفمبر يا سي الحاج سوف يغير مجرى الحياة نحو مستقبل جديد دون هذا المستعمر، لأنها من الشعب..

اعلم متى ما انتقلت الثورة إلى المدن فسيكون الانجاز الأكبر وبداية نهاية الاحتلال.

يا رب عجل بذلك...سيكون نصرا كبيرا.

فئة قليلة من المجاهدين انتشرت بشكل منظم في اغلب المناطق الجزائرية وبحوزتهم قطع سلاح قليلة وبضعة قنابل تقليدية فقط.. هكذا كانت بداية الثورة، لكن العقيدة والعزيمة للقضية المحقة كانا الدافع الأكبر والمحرك الأساسي.. بل مركز القوة في المجابهة.

مراكز الدرك والثكنات العسكرية ومخازن الأسلحة ومصالح استراتيجية أخرى كانت تحت مرمى النيران، لم تسلم أيضا الممتلكات التي استحوذ عليها الكولون [1]

وباعتراف السلطات الاستعمارية توسعت الدائرة شيئا فشيئا، لكن رد الفعل كان عنيف.

بقدر أصوات الطائرات والمدفعيات التي كانت تقصف دون تميز بقدر ما كان الانتشار واسعا لشرارة الكفاح في نفوس عموم الشعب.. كانت العائلات الفقيرة في القرى والمداشر تأوي المجاهدين لحظة مرورهم وتقسم رغيف الخبز معهم.. تلك الروح كانت زاد المحارب.

شتاء عام 1955 كان جحيما على الحاكم العام بول شيري.. ثلاثة أشهر مضت والميادين تلتهب.. لا شيء توقف.

أريد تفسيرا مسيوا فرنسوا لما يحدث الآن، الأزمة ستحتد في أي وقت ولا يجب أن يتكرر هذا الأمر أبدا.

سيدي الحاكم، لا معلومات لدينا هذه المرة ولا كيف اتفقوا على هذا الأسلوب.. برأيي يجب أن نقضي على رؤوس الشغب ونوجه ضربة موجعة أكثر للأهالي كي لا يتفاعلوا مع ما يحدث ونسيطر على الأمر.

(1) الكولون: وهم المستوطنون الأوروبيون سواء كانوا فرنسيين أو مجنسين أصبحوا ملاك الأراضي التي كانت للجزائريين.

عليكم محاصرتهم الآن، يجب أن لا يفكروا مجرد التفكير أنهم يستطيعون تغير شي على الأرض، اضربوا بكل قوة لا نريد أن نخسر مرة أخرى جنودنا في كل مكان.

لا اعرف من أين لهم هذه القوة.

دورك أن تعرف وتنفذ المطلوب لكيلا يتكرر الأمر، وإلا اترك مكانك لشخص آخر ...هيا بلغ الوحدات التي بأمرتك بتمديد حالة الطوارئ، كثف الاعتقالات والدوريات لا تستثني أحد.. نساءا وأطفالا وشيوخا.. المدن كالقرى المداهمة في كل وقت. قوة السلاح هي من ستحدد الأقوى على الأرض...هيا انطلق ووافني بكل جديد.. انتظر أريد أيضا رؤساء تحرير بعض الجرائد ولقد دونت أسماءهم في هذه الورقة.. أريدهم في مكتبي حالا.

حاضر سيدي الحاكم.

لم يثني بطش المستعمر وغاراته عزيمة المقاومين بل زادهم الأمر إصرارا وزرع الثبات في نفوسهم مقدارا، ما جعل الشعب يلتف مع الثورة ليلا نهارا.. ودون تردد أو انتظار ساند بكل أشكال الدعم المتاحة متخذا بذلك أعظم قرار.

كانت سينما دنيا زاد في مدينة الجزائر معقل مفدي الثقافي مع رفاقه، حديث الثورة والثوار شغلهم الشاغل...فالبحث عن سبل دعم رفاق الكفاح بالكلمة والمال أولوية أساسية.

الأحلام أضحت واقعا يتجسد يا شيخ مفدي.

الحمد لله يا سي محمد.. أصبحت أيضا أضغاث صعب على العدو تفسيرها، العمليات في كل مكان فهم يكيدون كيدا لكن النتائج عكس توقعاتهم وها هو قائدهم بول اوساريس تراه يبكي الآن من وجع الضربات ولا حديث لهم سوى التقليل من هذه العمليات أمام العلن وتجدهم بين أنفسهم أشد رعبا مما يحدث.

الخطوات الثابتة تعجل من اتساع رقعة العمليات وتزيد عدد الملتحقين بصفوف الجبهة رغم قلة السلاح وقرار نقل العمليات إلى المدن أين الصحف العالمية والدوائر الاستعمارية الرسمية خطوة صائبة جدا.

صحيح لقد أحدثت صدمة للعدو.. ما فعلوه الخاوة بطولة كبيرة على الجميع أن يسمع بثورتنا ولا تنسى "..كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله..". كل من استطاع من الداخل أو الخارج أن يدعم بما يملك فهذا إثبات لرابط الأخوة...مصر رفقة الأشقاء من الدول دعمت بقطع السلاح وتبنت القضية وهذا عنصر قوة.

فعلا.. وماذا عن مشروعنا؟

مستمر وسيتوسع أكثر علينا أن نوجه دعوة للفنانين العرب للحضور وذلك للتعريف بالقضية. الثقافة والفن يا صديقي مسلك مهم أيضا ويساهم في رفع المعنويات ودليل عافية وسبيل من سبل الكفاح، لن نفرط في أي شيء يرمز لهذه الأرض ومتى ما حافظنا على تراثنا وسخرناه للقضية فنحن في الطريق الصحيح أيضا.

نحن معك وكل الأمور قد تم التجهيز لها، والفرقة على استعداد كامل والله الحق يقال إنك سخي بما تملك من إيراد محلك وقاعة السينما الخاصة بك للثورة وهذا يحسب لك.

لا.. لا أريد جزاءا ولا شكورا لا تقل هذا.. اعلم انه لا قيمة لنا دون وطن حر مستقل نحن أبناؤه وهذا أقل واجب...لا تذكر هذا مرة ثانية

وهو كذلك.. المهم لقد اكتمل العدد وحان وقت تدريبات الألحان.

تفضل سألحق بك.

نوفمبر جل جلالك فينا — الست الذي بث فينا اليقينا
سبحنا على لجج من دمانا — وللنصر رحنا نسوق السفينة
وثرنا نفجر نارا ونورا — ونصنع من صلبنا الثائرينا
ونلهم ثورتنا مبتغانا — فتلهم ثورتنا العالمينا
وتصخر جبهتنا بالبلايا — فنسخر بالظلم والظالمينا
وتعلو السياسة طوعا وكرها — لشعب أراد فأعلى الجبينا
جمعنا لحرب الخلاص شتاتا — سلكنا به المنهج المستبينا
ولولا التحام الصفوف وقانا — لكنا سماسرة مجرمينا
فليت فلسطين تقفو خطانا — وتطوي كما قد طوينا السنينا.

ازدادت الضربات الموجعة والتي كانت تلاحق المستعمر الفرنسي في كل الاتجاهات جعلته لا يلتقط أنفاسه طيلة سنتين، فلم يمضي وقت قصير حتى يستسيغ جنرالات العدو هروب مهندس الثورة بن بولعيد من بين أيديهم ومن داخل أسوار السجن حتى أبيدت الكتيبة التي أوكلت لها مهمة تتبع أثره... إثر ذلك تهاوت أسماء جنرالات وقيادات استعمارية كانت تتغير بعد كل إخفاق.

بعد سنتين تقريبا من القتال البطولي لأبناء هذا الشعب الأعزل.. جيء بروبرت لاكوست الحاكم الجديد عله يكون المنقذ.. لكنه بدا مضطربا في أول أيامه يسعى لإيجاد حل.. أسطورة فرنسا العظمى تهوي أمامه.. يمشي قليلا في مكتبه ثم يقعد على الكرسي المحاذي لطاولة الاجتماعات.. يحدث نفسه. لم ينتبه لوجود الضابط أندري والجنرال بول فانكسام وهما يكلمانه دون رد. فما هو فيه قد قلب كيانه.

سيدي اعتذر لقد دققت الباب لأكثر من مرة... إلى أن أتى حضرة الجنرال فانكسام وهممنا بالدخول ... هل أنت بخير يا حضرة الحاكم؟

كان الرد منفعلا أيضا...*وكيف أكون بخير حضرة الجنرال ونحن بهذه الأحوال. لا يمكن أن اصدق هذا الأمر، فرنسا العظمى تطارد اللاشيء ويختفي فجأة، كيف يحدث هذا؟ ... بن بولعيد كان في وقت ما بين أيدينا ثم يستطيع الهروب بكل سهولة دون أن نتمكن من القبض عليه وبن مهيدي وجماعته في الغرب وعلي لابوانت و حسيبة بن بوعلي و من معهم هنا في مدينة الجزائر و غيرهم، لقد حفظت أسماءهم و نملك فقط صورهم لكن لا نعلم أين هم. يجب أن نضع حدا لهذا الأمر ...لقد أصبحوا يملكون سلاح آخر انه الثقة... وهذا يشكل خطر على استقرارنا.*

أرى أن الأمر يتطلب جدية في القتال، فهؤلاء الفلاقة [1] يملكون شيء ما يعوضهم نقص السلاح كما أنهم يتقنون حرب الشوارع. علينا أن نبدأ بالأوراس فمتى ما قُطع نسل ما أسموه بالثورة تأكد سيدي أن كل المناطق سوف تتراجع وتهدأ.

(1) الفلاقة: مدلولها قطاع الطرق، هذا مصطلح اختص به سكان شمال إفريقيا، كان المستعمر يصف به ازدراءا وتحقيرا عامة الناس الذين استطاعوا حمل السلاح والقتال تلبية لنداء الوطن ولاستقلاله لغرض التقليل من شأنهم

هل يعقل في معركة واحدة وأيام معدودة أن نفقد أزيد من 700 جندي و90 دبابة بيد مجموعة وكأنها أشباح... تظهر وتختفي كيفما تشاء لقد كانت معركة الجرف [1] قاسية يا سيدي.

ما يقوله الضابط أندري مهم جدا حضرة الحاكم... السلاح يأتي من مناطق مجاورة وممرات غير ثابتة على الحدود الغربية والشرقية أرى أن نضع أسلاك شائكة مكهربة على طول الحدود ومن الجانبين بهذه الطريقة لن يجرؤوا لا هم ولا حتى الحيوانات تخطي الحدود.

لأول مرة اسمع كلاما معقولا ومقترحا منطقيا... فكرة جيدة جنرال فانكسام تحتاج إلى تكلفة وتقنية عالية... المهم دون تفاصيل انجازها وسوف ترسل لوزير الدفاع أندي موريس لكي يعرضها على البرلمان، لكن علينا أيضا أن نقضي على رؤوس الشغب في الداخل، إن وجودهم خطر على وجودنا فإما نحن أو هم.

رفع الضابط أندري يده يود التعجيل بمقترح يراه مهم...لدي اقتراح سيدي يمكننا من القضاء على بن بولعيد بكل سهولة... لما لا نقوم بما عمد إليه الإغريق من حيلة في حربهم ضد طروادة.

ماذا تقصد؟ سيدي الحاكم لاكوست، حضرة الجنرال فانكسام... كنت أفكر منذ مدة في طريقة اعتقد أنها تستحق التنفيذ، سوف أخبركم بتفاصيلها.

تقدم لخطوات (يشرح على اللوح المخصص في المكتب) تقوم وحدات من الطائرات بالتحليق كالعادة على مقربة من المنطقة التي من المحتمل أن يختبئ فيها بن بولعيد و من معه ثم يتم إلقاء جهاز إشارة من دون بطريات عبر منطاد صغير على أن يكون يحتوي على متفجرات مخبأة بإحكام بداخله، ثم نُشيع عبر الصحف و الأخبار انه قد تم فقدان جهاز مهم و جاري البحث عنه و نقوم بتمشيط سطحي و ننصرف، أتوقع أن يلتقطه جماعة بن بولعيد و يعتبرونه غنيمة كبيرة و بما انه هو الزعيم بنسبة لهم فسيسلم إليه و ما أن توضع البطاريات لتشغيله سينفجر هذا الجهاز.

ممتاز... جدا رائع وما نسبة نجاح العملية؟

(1) معركة الجرف: هي معركة بمنطقة الأوراس دامت ثمانية أيام سقط فيها 700 قتيل من الجيش الفرنسي

بنسبة عالية بوجود الهدف... اقصد بن بولعيد فعند تشغيل الجهاز يجعل العملية تحقق المطلوب.

جيد جدا... وإن استطعنا أن نخترق صفوفه قبل ذلك لنعلم تحركاته فهذا أمر مهم أيضا ... اقتراحاتكم هذه قد عدلت مزاجي ... شكرا لكم، اعتقد انه علينا الآن أن نشرب نخب هذه العملية... يجب أن تنفذ في الحال.

اعصفي يا رياح واقصفي يا رعود
وأثخني يا جراح وأحدقي يا قيود
نحن قوم أباة ليس فينا جبان
قد سئمنا الحياة في الشقا والهوان
لا نمل الكفاح لا نملا لجهاد في سبيل البلاد
أجلدوا... عذبوا... واشنقوا... وصلبوا
واحرقوا ... وخربوا... نحن لا نرهب
لا نمل الكفاح لا نمل الجهاد... في سبيل البلاد.

استشهد بن بولعيد والعديد من رفاقه بالطريقة التي خطط لها العدو واستشهد الكثير ممن سبّل النفس فداء للوطن في كافة النواحي.. لكن الروح الثورية لم تنقطع بل أخذت تزداد يوما بعد يوم وشغف القتال والكفاح لتحرير البلاد أصبح قوت الناس صباح مساء وهمهم الوحيد كان تغير الواقع بكل ما يحمل من تفاصيل استعمارية فالعودة إلى نقطة البداية لم يعد لها مكان.

كان وقع الرصاص ورائحة البارود تحتاج إلى كلمات تترجم ما في قلوب المجاهدين أنفسهم وعامة الشعب فهم منهم وإليهم، العنوان كان معروف وناحت الكلمات الصادق الصدوق كان ينتظر الفرصة فما بداخله كفيل بوصف ملحمة ترتسم معالمها أمام العالم بشكل يومي.

في أزقة مدينة الجزائر العتيقة أين الدرج الطويل يجعلك تعبر إلى مكان آخر تجمل بأقواس ومعابر ضيقة تشعرك بمودة الناس وقربها من بعض، فهم من أعلنوا الولاء والبيعة لتحرير البلاد رفقة كل المخلصين من شرقها إلى غربها ونحو جنوبها...كان حسين واحد من الشعب لم يهدر الوقت لجلب المنتسبين للجبهة فكلما زاد العدد تعاظمت القوة وعجل الطريق نحو النصر.

والله يا أخي عبان كم هو جميل أن يلتقي الجميع بمختلف المستويات والمشارب في هذا العمل المقدس هذه مؤشرات ايجابية توحي أن هنالك جولة واحدة مع هذا العدو ونقضي على وجوده.

فعلا، إذا ما صمد الجميع وتظافرت الجهود سنحقق نصرا كبيرا، إن كلامك يا أخي حسين اليومي يجعلني انتظر أن أساهم بأي شيء رفقة الإخوة أينما كانوا لكي تتحرر بلادنا.

بارك الله فيك وهذا المطلوب يجب أن لا نتوقف، أمر آخر أخي عبان، علينا أن نحضر نشيدا يشحذ الهمم ويعبر عن صوت الشعب في هذه الفترة وهذا عنصر مهم و فعال.

خطوة مهمة وجود النشيد فهو ضروري ويضفي عمقا للقضية ولكل من يعايش حلم التحرير، سوف أناقش الموضوع مع الأخ رابح لحضر فله دراية بالشعراء والكتاب ويمكن أن يساعدنا في هذا الأمر.

أحسنت الاختيار.. كل يوم جديد هو بمثابة خطوة إلى الأمام، أخبره بالأمر هذا المساء للسير قُدما في هذا الموضوع.

نشيد تمجيد ثورة التحرير ومواكبة نضال الشعب ضد فرنسا العجوز كان منعطفا آخر في قصة الكفاح المسلح ولحظة تاريخية نحتت أبياتها بجوارح صادقة كانت قسما مقدسا لكل المعارك.

في شهر ماي / نيسان وفي أحد المقاهي وسط مدينة الجزائر، كان ينتظر مفدي مبعوث الجبهة إليه، لم يتردد وأقبل مسرعا فالموعد موعد وطن واللقاء مهما وحتما يدور في فلك ما يحدث.

تحياتي القلبية للشيخ مفدي أيها المثقف البارع، كيف هي الأحوال؟

أهلا..أهلا وسهلا بك السي رابح الحمد الله والله طالما نبض العباد تجاه البلاد في الارتفاع فنحن بخير ونعمة نسأل الله أن تكون الخواتم كما نرجو ونأمل...تفضل.

شكرا.. إن شاء الله ثقتنا في الله وعموم الشعب كبيرة، كالعادة يا أخي مفدي لا يخرج حديثك عن الثورة سواء في شعرك أو مجلسك.. ماذا عن التجارة كيف أحوالها؟

من رب العالمين جزيل الشكر على ما جرى به قضاؤه، لكن هنالك من يحاول أن يبث الفتنة ويلحق الضرر بالتجار المزابيين هنا في العاصمة والبليدة ويحرض على مقاطعتهم وهذا فعل مستعمر خسيس ومن معهم من اليهود الحاقدين وأمر كهذا يصب في مصلحتهم.

ستفرج بإذن الله ما دام هناك أناس واعون بما يخطط العدو ومن معه، لقد جئتك في أمر يتعلق بما نحب.. بلادنا الجزائر.

اطلب ستجدني الجزائر مثلما تحب... فهي العشق كله.

بارك الله فيك اعلم نبلك وإخلاصك للقضية، نريد منك أن تنظم أبياتا تكون نشيد الثورة ومُسعرها.. المجد فيها للشعب وحده، نريد أن نغرف ما في وجدانك لهذا الوطن الذي نفخر به ونعتز وأنت أقدر على ذلك.. نريد الكلمات تدعو كل الشعب اللحاق بالثورة ويدعم موكب النصر ونعلن صراحة طغيان هذا العدو المحتل للأرض ومن المهم مرة أخرى أن لا نذكر أي اسم أو نمجده مهما كان تاريخه النضالي.. اشعر أنك ستقدم للجزائر تحفة من نفائس شعرك أخي مفدي.

خطوة مهمة.. أقدر كلامك وأقدر ثقة لخاوة في الجبهة ... ستكون الأبيات جاهزة في أقرب الآجال فهي أصلا في فلك خاطري تطوف كل لحظة وحين... وها قد حانت الفرصة.

كنت أدرك أن وطنيتك تسبق كل شيء فيك، إذا اتفقنا ونحن في انتظار ما يجود به حبك وإخلاصك لهذه الأرض.

دقات قلب مفدي تسارعت منذ ذلك الموعد.. توجه مسرعا إلى خلوته أين محراب الكلمات اتخذته خليلا. كان يكتب بفرح وتعبير وجهه يتناغم مع كل حرف يخطه. كصاحب ريشة يتأمل ثم يتمم رسمه وكل الجمال أمامه.

في ذلك الطابق تحت الأرض كان مفدي كالعادة عند وعده ومع مطلع يوم جديد كان نشيد قسما قد تصاعد دخانه واكتمل نسج أبياته وسلك طريقه وأبهر كل من قرأه، لكنه اقتضى ضرورة التلحين فعاد إليه من جديد.

اجتمع مفدي بلهفة العاشق لبلده بمن كانوا حوله من فنانين ومثقفين سعيا للتلحين والتسجيل فكان لهم ذلك وسلكت طريقها بنسختين سُلمت إلى خلية النضال في العاصمة قصد تقيمه.

سُمع النشيد لأكثر من مرة. لكن أمر ما كان يستوقف خلية النضال في كل لحظة...

يا إخوان أرى أن الكلمات أقوى من اللحن يجب أن يكون هنالك تجانس تام. إن نشيد الثورة من الضروري أن يجعل الجماد يتحرك...ما رأيك يا سي لغواطي؟

صحيح يا سي عبان والله تقنيا أوافق هذا الكلام بالكامل، نحن بأمس الحاجة لالتفاف الشعب حول مبادئ نوفمبر وتعميم النضال يقتضي لحنا يتماشى مع الكلمات...هذه رسالة مسموعة لتحريك النفوس من المفروض تكون أقوى.

فعلا.. إذا أخونا رابح يتكفل بالأمر ... من فضلك بلغ كل من سجل ولحن وتعب من الفنانين الجزائريين والتونسيين جزيل الشكر على المجهود والروح الوطنية ولكن نريد لحن أخر وأداء أقوى ليتماشى مع عمق الكلمات وعمق القضية.

وهو كذلك، أرى أن نعود مرة أخرى لمفدي لديه أصدقاء كثر في تونس فلما لا نكلفه بالسفر شخصيا إلى هنالك ويعرض النشيد للتلحين اعتقد أنها خطوة تستحق المحاولة..أشقائنا في تونس سوف يرحبون بالفكرة؟

لما لا... على بركة الله.

لم تأتي رحلة البحث عن لحن بديل في تونس أوكلها على النحو المطلوب رغم ما بذل من جهد فني بالغ الأهمية امتزجت فيه الأصوات العذبة بالحان تنوعت بحسب الأبيات كان الموسيقار محمد التريكي الفضل فيها لكن الأمر لم يكن مُقنعا لتنوع المقامات فالكلمات المنحوتة كانت تحتاج إلى فوهات المدافع وأزير الرصاص لصوغ لحنها.

أعين السلطات الاستعمارية على مفدي استنفرت وبقيت متربصة تنتظر الفرصة لتكيد كيدها والتي رأت فيه عنصرا مخلا بالأمن العام ومصدر إزعاج لها في الجزائر، فنشاطه وإن غلف بصفة فنية لكن مضمونه ثوري... ازدادت المتابعة لتحركاته وتجارته فكان على موعد مع السجن مرة أخرى.

العودة إلى السجون

لم يؤثر سجن بربروس على معنويات مفدي... بل بقي على وتيرة نشاطه، تعرف على من معه في السجن فكان يصف لهم أحوال البلاد ويتحدث عن مستقبلها وكيف أن الأمور تتسارع وتمشي في الطريق الصحيح نحو التغير الكبير الذي من شأنه أن ينهي مسألة الاحتلال بالكفاح لا غير...كان واثقا الخطوات أضحت قليلة للوصول إلى النصر الكبير.

كان الحارس كاستون في سجن بربروس يراقب مفدي ويدون كل حركاته وسكناته ويضيف إليها ملاحظاته وهواجسه ثم ينقلها مساءا إلى مكتب قائد الأمن العام للسجن مكسيم.

سيدي القائد إن السجين الجديد المسمى مفدي زكريا مدرك أني أراقبه لكنه لا يمل أبدا فهو لم يلتزم بالتعليمات وحديثه مع باقي المساجين لا يتوقف وكأنه يحثهم على تنفيذ أمر ما ويتنقل من مجموعة إلى أخرى ويحمل مغلفا يلازمه في كل تحركاته اعتقد أنه يحوي مجموعة من الأوراق.. أرى انه يشكل خطرا داخل السجن كخارجه سيدي.

اسمع يا كاستون استمر بالمراقبة... يجب أن لا يغفل نظرك عنه إلى أن يأتي الوقت المناسب ونضع له حد ..اعتقد عندما يتعرف على طريقتنا في الترحيب داخل هذا السجن سيتوقف لسانه و تمتنع يده عن الكتابة... أيام قليلة ثم قم بمصادرة كل ما بحوزته و احضر ترجمانا لمعرفة ما كتب على هذه الأوراق.

علم وسينفذ سيدي ولو تأذن لي سوف أتولى أمره وبطرقتي الخاصة.

لك ذلك بعد مصادرة الأوراق وبعد أن اطلع عليها.. اجعله عبرة لغيره ولكن انتبه نريده حيا في الوقت الحالي..

وهو كذلك سيدي، اعتقد أن في جعبته العديد من الأسرار.

ويجب أن نعرفها.. أيضا أريد بيانات تفصيلية عن كل السجناء الجدد، أريد كل ملف على حدا. لا اعرف من أين لهن كل هذه الجرأة... هيا انصرف.

احترامي سيدي.

لم تُجدي أساليب المستعمر الفرنسي في التضييق على مفدي بل ارتفع نبض الوطنية لديه داخل عتمة زنزانته فقد كان يحرر نصوصا ثورية بحذر شديد ويطلق لها العنان بسرية تامة خارج أسوار السجن وبأسماء مختلفة تنشر عبر الصحف وأكثر من ذلك عمد إلى بث روح العلم والمعرفة بين رفاقه وذلك بإعطاء دروس بشكل يومي تقريبا في اللغة والتاريخ والأناشيد الوطنية التي فعلت فعلتها في نفوس الجميع في غياهب السجون.

في تلك الأيام التاريخية سافر نشيد قسما يبحث عن لحن له فكان المستقر في القاهرة تحديدا في مبنى صوت العرب، أين أذيع بيان الثورة التي يواكب الأثير نضجها يوما بعد يوم.

بينما كان أحمد السعيد يقلب نص نشيد قسما بعد أن قراءه لأكثر من مرة فعبق الشهادة الممزوج برائحة البارود يشد بقوة. دق باب المكتب بطريقة فنية.. أنتبه لدق الباب وقد أدرك بعد ذلك صاحبها محمد فوزي، فلقد كان يعرف طريقة طرقه للباب.

نعم تفضل بالدخول...لقد عرفتك.

صباح الخير يا أستاذ احمد، كيف حالك؟ لقد جئتك في طلب خاص أرجو أن تقبله.

الحمد الله، اجلس يا فنان أولا.

عندي سؤال يزعجني كثيرا، لماذا أنا مقصى من تلحين الأناشيد الثورية لصوت العرب، أنا فنان محترف كما يعلم الجميع.

أجاب أحمد السعيد مقاطعا من باب تفنيد الأمر ... *ليس هنالك إقصاء ولا اختلاف على نجوميتك في الفن واحترافك للتمثيل، لكن هنالك معايير أخرى. ألحانك قيمة ولكنها خفيفة وأحيانا تطرب الصغار وهذا شيء جميل ونحن هنا نريد ألحانا تدعو للقتال والتضحية والاستشهاد في سبيل تحرير الأوطان العربية...فهمت يا عزيزي محمد.*

وماذا عن رغبتي في خدمة القضايا العربية كيف لي أن ادعمها. أرجوك أن توافق وأن تضيف اسمي لمجموعة الملحين في الإذاعة وعلى مسؤوليتي...ما رأيك؟

الأمر ليس بهذه السهولة يا أستاذ محمد، اعتذر منك..أرجو أن تتفهم المعايير المعمول بها.

أعطني نص على سبيل التجربة وأتكفل بكل المصاريف الخاصة بالفرقة والكورال والمطرب أيضا إن اقتضى ذلك وسأسجل خارج الإذاعة في استديو مصر ولك أن ترفض بعد ذلك أو تقبل.

مم.. لقد غلبني إلحاحك ورغبتك وتقاسيم الحزن ارتسمت على وجهك ..أنا موافق سيكون لك ما أردت ولكن لا تتحمل الإذاعة جُنيها واحد وعند إتمام العمل من حقي أن ارفض أو أقبل اللحن رغم تقديري المسبق لجودة عملك.

اتفقنا إذا؟ أشكر قبولك.

أنت فنان مبدع... خذ هذا النص ... نشيد قد وصل اليوم عن ثورة الجزائر وكلماته قوية تحتاج إلى لحن قوي عدل فيه صاحب النص واسمه الأستاذ مفدي زكرياء وهو الآن يقبع في ظلمة سجن الاحتلال فوضع بدل.. وحلفنا أن تحيا الجزائر... وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر، هل من سؤال؟

لا.. لا شكرا لك، علم وبحول الله سيعد على أكمل وجه، إن وافقت على اللحن لا أريد أجرا فهذا عربون محبة للقضية.

لكن من حقك أن تأخذ مقابلا نظيرا الجهد المبذول!! المهم هذا شأنك ومن جود إحساسك الراقي..أتمنى لك كل التوفيق.

في القاهرة تطابقت رغبة الملحن محمد فوزي في إتمام العمل على أكمل وجه مع نبض دقات قلب الشاعر مفدي حين خط الكلمات في الجزائر.. فكان من دون لقاء موعدا وطنيا وفنيا بإمتياز.

اندماج الأبيات مع وقع الموسيقى الحماسية أعطى بعد أيام، عملا متكاملا لاقى ترحيب الجميع وخلال أشهر اعتبر نشيد الثورة الجزائرية وروح المقاومة بامتياز.. فكانت له القلوب صاغية، تنبض على وقع معانيه كل مرة حين سماعه..

قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن ثرنا فحياة أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

نحن جند في سبيل الحق ثرنا وإلى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يصغى لنا لما نطقنا فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش لحنا وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
يا فرنسا قد مضى وقت العتاب وطويناه كما يطوى الكتاب
يا فرنسا إن ذا يوم الحساب فاستعدي وخذي منا الجواب
إن في ثورتنا فصل الخطاب وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
نحن من أبطالنا ندفع جندا وعلى أشلائنا نصنع مجدا
وعلى أرواحنا نصعد خلدا وعلى هاماتنا نرفع بندا
جبهة التحرير أعطيناك عهدا وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
صرخة الأوطان من ساح الفدا اسمعوها واستجيبوا للندا
واكتبوها بدماء الشهداء وأقرأوها لبني الجيل غدا
قد مددنا لك يا مجد يدا وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

لم يلتفت جيش التحرير إلى الخلف أبدا بل ازدادت رقعة العمليات الفدائية وشملت عمق المدن الكبرى موقعة خسائر لدى جيش العدو الذي جابه تنامي الروح الوطنية والتفاف الشعب حول الثورة بأساليب عُنفا مختلفة دون تحقيق غايتها فكان تنفيذ أحكام الإعدام واحدا منها.

كان مغيب ذلك اليوم الصيفي في سجن بربروس مختلفا، تلبدت ألوان السماء لأكثر من مرة. سحبا بين الحمرة والصفار الموجع. ثم تعاظم الأسود فأمطرت على غير العادة، ربما كانت تبكي زبانة شهيد المقصلة.

في زنزانته رقم 69 جلس مفدي وحيدا. كان الحزن يحاصره، لطالما تغلب عليه لكن هذه المرة كان له وقع شديد.

تقدم إليه حمودة أحد الرفاق مخاطبا من شباك صغير...

عليك أن ترتاح لاحظت أنك لم تنم منذ أيام... شيخ مفدي.. هل أنت بخير؟

الحمد الله.. الحمد لله على كل حال أخي وكيف يغفو لي جفن وما حدث أمام أعيننا هو إجرام ليس بعده إجرام، يردون كسر شوكتنا وقد تعمدوا أن يشاهد الجميع إعدام زبانة ...سوف نفتقدك يا شهيد.

نال فخر الشهادة يا شيخ... لقد اعتدنا عليك تقوي عزائمنا وتبعث فينا روحا جديدة كلما تسرب اليأس إلينا.

ولا زلت كذلك يا أخي حمودة.. لا مكان لليأس بيننا. لن ينالوا مرادهم ولن نضعف أو نستكين لهم. فقط أحاول أن اهدأ من روع ضجيج الأفكار التي تدور في رأسي. يجب أن ينتهي هذا الألم، لقد دفعت بلدنا الكثير لهذا العدو.

صحيح... حتى المقصلة لم تأبى أن تشاركهم بطشهم لقد كرروا العملية أكثر من مرة وبقي حيا إلى أن توفى رحمة الله عليه.

إن الشهيد زبانة لا يزال حي في قلوبنا هو ذبيح صعدت روحه إلى السماء في ساعات الفجر الأولى لكنه لم يغادر أبدا، حتى مشيته كانت دليل على صلابته وانه باق معنا بقوي عزائمنا، كان يبتسم في وجه جلاديه ويردد إن الجزائر ستبقى وكان سعيدا لكونه أول من أعدم، سمعت زغاريد السجينات في الطابق السفلي إيقاع نصر موزون لا مثيل له، إيقاعه في أذني باق.. كل هذه الصورة لن تمحى من ذاكرتي أبدا...والله سوف يندم هذا العدو على ما اقترفت يداه الملطخة بدماء إخواننا كل هذه العقود من الزمن.

كلامك مؤثر يا شيخ، ما يثلج الخاطر أيضا تلك الأخبار التي تصلنا... لخاوة المجاهدين في الناحية الغربية قاموا بعملية فدائية.

اجل بلغني ذلك وهذا ما يجب أن يكون فقد قضوا على العديد من الحركة نكالا لما صنعوا وأعدما أيضا فرنسيين جنود قد أسروا في الاقتتال كانوا قد انتهكوا أعراضا وحرقوا العديد من البيوت فيها أطفال ونساء، إن ردة الفعل السريعة أقوى من سلاحهم وتخيفهم.

إن الشهادة يا سي حمودة لحظة سامية تضمن حياة أبدية عظيمة في نفوس الناس وعند الخالق على حد سواء فهنيئا لزبانة ولجميع الشهداء.

والله يا شيخ مفدي جئتك مواسيا فواسيتني أنت.. إن قتالك بالكلمة لا يختلف عن قتالنا بالسلاح. انتظر اللحظة التي أعود فيها إلى ارض المعركة. إن كلامك في هذا السجن المقيت يجعلنا نستشعر الحرية وندرك أن غدا لا محال يوم آخر يختلف عن كل هذه السنين الطويلة التي مضت...تفضل معي الجميع بانتظارك.. من الضروري أن يسمعوك الليلة إنها صعبة على الجميع.

قام يختال كالمسيح وئيدا ... يتهادى نشوانَ، يتلو النشيدا
باسمَ الثغر كالملائك أو كالطفل ... يستقبل الصباح الجديدا
شامخاً أنفه جلالاً وتيهاً ... رافعاً رأسَه يناجي الخلودا
رافلاً في خلاخل زغردت تملأ ... من لحنها الفضاء البعيدا
حالماً كالكليم كلّمه المجد ... فشد الحبال يبغي الصعودا
وتسامى كالروح في ليلة القدر ... سلاماً يشعُ في الكون عيدا
وامتطى مذبح البطولة مع راجاً ... ووافى السماءَ يرجو المزيدا
وتعالى مثل المؤذن، يتلو... ... كلمات الهدى ويدعو الرقودا
صرخة ترجف العوالم منها ... ونداءٌ مضى يهز الوجودا
اشنقوني فلست أخشى حبالا ... واصلبوني فلست أخشى حديدا
وامتثل سافراً محياك جلادي ... ولا تلتثم فلستُ حقودا
واقض يا موت فيّ ما أنت قاضٍ ... أنا راضٍ إن عاش شعبي سعيدا
أنا إن مت فالجزائر تحيا ... حرة مستقلة لن تبيدا

صعّدت السلطات الاستعمارية وتيرة الحرب لقمع كل ما يهدد وجودها فاستقدمت لتعزيز بطشها وحدات عسكرية إضافية وقيادات تمتهن أساليب التعذيب والتنكيل والخطف بعدما بدأت الأمور تفلت من يدها لكن ذلك لم يثني أحد من مواصلة طريق التحرير داخل السجون وخارجها.

واقعة خطف زعماء الثورة الخمس أحدثت حالة من الارتباك، لكن مفدي كعادته صديق الكلمة حين يدونها بيده أو ينطقها بجوارحه سعى إلى تخفيف من وقع المصاب، فهو يعلم أن كلامه يستقر في القلوب والعقول.

في ساحة ذلك السجن البغيض أخذ يخاطب مفدي رفاقه غير مبالي بعين السجان وبطش معاونيه.. مسترسلا، الكل لكسب الوقت قبل منعه عن الكلام.

يا إخوان لما كل هذا الحزن ...الثورة لم تنتهي باستشهاد الأبطال... بدمائهم تبنى الأوطان وتتحرر، إن ما أقدم عليه المدعو لاكوست وجماعته لن يثني عزيمتنا أبدا ولا ينسينا مبادئنا تجاه أرضنا أن نراها مستقلة..لا يجب أن أراكم هكذا لم نكون يوما ضعفاء نحن في عهد الثورة التي ترسم أسمى معالم البطولات وتقدم النفس والنفيس لأجل ذلك اليوم الذي نراه قريبا وقد أقبل.

ولكن يا شيخ... خطف أبرز قادتنا واعتراضهم في السماء وإجبارهم على تغير مسار طائرتهم أمر بالغ الخطورة. قد كانوا أكثر من شخص والآن هم قابعين في سجون فرنسا خارج البلاد ...اعتقد أن الثورة انتهت.

يا سي الهاشمي لا تقل هذا ولا أريد أن اسمعه منك مرة أخرى.. أبدا...لم ينتهي شيء...ممنوعة هذه اللغة.

يقال يا شيخ مفدي إن الطائرة أقلعت من مطار الرباط متجهة إلى تونس لحضور القادة ندوة حول مسألتي إتحاد المغرب العربي واستقلال الجزائر يضم كلاً من الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة وملك المغرب محمد الخامس، لقد أسماها المجرم لاكوست ومن معه من مخابراتهم بالتنسيق مع قيادة الجيش العدو الفرنسي بعملية الربع ساعة الأخير (1) ...

(1) *عملية الربع ساعة الأخير: حين أقدم طيران الجيش الفرنسي على اختطاف طائرة تظم رموز الثورة الجزائرية أحمد بن بلة رفقة محمد بوضياف وحسين آيت أحمد ومحمد خيضر والصحفي مصطفى الأشرف و تعد أول عملية قرصنة جوية في التاريخ*

أخانا مفدي أريد أن أضيف أمرا على ما الذي تفضل به سي بوعلام العملية بمباركة جنرالهم هنا في العاصمة سوشاد، القصد منها توجيه ضربة للذراع السياسي للجبهة ومكتبها الخارجي الذي كان يتولى إدارة الشؤون السياسية والدبلوماسية للمعركة وأيضا لإرضاء شعبهم وكسب الثقة لعساكرهم بعد خيبة أملهم ظنا منهم أنها فرصة مواتية للتخلص من رأس الثورة.

توالى سرد الروايات والأخبار ومفدي يسمع ويريد في آن واحد أن يقول لهم توقفوا ويخبرهم بأمر مهم...

عفوا يا جماعة العدو ليس من الغريب أن يخطف ويرتكب المجازر ويحرق ويغدر منذ أن غزى بلادنا...يجب علينا أن لا نضعف أبدا، اسمعوا.. كل واحد منا عندما انضم إلى الثورة كان يدرك انه سيسجن أو يستشهد أو يخطف لقد شاركنا في الثورة دون معرفة الأشخاص وأسمائهم ولكن جمعتنا قضية الاستقلال والحرية مهما كانت التضحيات. إن من استشهدوا يعز علينا فراقهم وقد تخطوا الملايين منذ أزل بعيد ومن خطفوا هم أبطال وما حدث لهم دليل أن العدو بما يملك من عتاد وجواسيس أصبح يخشى من ثورتنا وأمام العالم أجمع... وقد فُضح أمره. هذه الثورة في الطريق الصحيح لأنها من الشعب وقد احتضنها الشعب كما قال بن مهيدي.. علينا أن نثق بأنفسنا نهاية المستعمر قد اقتربت...رددوا معي بنفس واحد وقلب واحد حتى وإن اعتدوا علينا الآن. فنحن لا نخشاهم.

باسم الأحرار الخمسة نخلفوا الثار [1] يا فرنسا.

لم تستطع إدارة السجن كبح نشاط مفدي رغم تضاعف طرق التعذيب النفسي والجسدي الوحشي له ولجميع نزلاء السجن من كانوا مدافعين عن القضية.

ولأجل إسكات صوته وقطم قلمه وبغية إلحاق الضرر به عمدت إلى بيع منزله في المزاد العلني، لكنه بقي على العهد وفيا يكتب في كل الاتجاهات، مدافعا عن مواقفه تجاه بلده الجزائر، شاملا القضايا العربية والمغاربية بنصوصه والتي ظلت تبصر النور خلسة وتكتمل بشكلها الورقي رغم آلامه في محبسه.

(1) نخلفوا الثار: بالدارج الجزائري المحكي وتعني نثأر لهم

كان لحظة جلوس مفدي مع نفسه والانفراد بذاته في زنزانته توقيتا يوميا يراجع ما مضى ويرسم في ذهنه أماني لما هو آت.

كان مسعود يستعد للمغادرة فقد قضى فترة سجنه... توجه مباشرة إلى زنزانة رقم 73 يبحث عن مفدي... اقترب منه وقال له: *عندما أراك تضع قطعة القماش على عينيك ومستلقي هكذا فمن المؤكد أنك تحضر لكتابة شيء بالغ الروعة كعادتك.*

والله إنها استراحة متأمل لكل ما يحدث، ساعة التعذيب قد أصبحت من يومياتنا وعقاربها تبتهج لصنيعها. إن كل ما اكتبه هنا في هذا السجن أضحى قطعة مني.

... اجلس.

أعاننا الله بالصبر وعجل فك أسر الجميع هنا وأسر بلادنا أيضا، جئتك مودعا فاليوم سوف أغادر هذا المكان... المفروض انتهت سنوات سجني. لكن هذا العدو لا يؤمن له جانب فربما يأخذني إلى سجن آخر..المهم أريد أن اسمع كلامك فعالمك لا مثيل له.. عالم يجعل منسوب الثقة بأنفسنا يزداد ويرتفع..لم أراك يوما تحدثنا عن عائلتك؟

الثقة ضرورية لكن العمل على نيلها يتطلب جهدا.. لما أنت واقف قلت لك اجلس ... أتمنى أن تخرج للحرية وتستمر في نضالك. أما عن عائلتي لا اعرف لا أجد أني مولعا بالحديث عن نفسي وأسرتي ربما لأني خلقت في هذه الظروف...جزائرنا أولى بالحديث عنها والسعي لإنقاذها.. سوف أخبرك طالما سألت، بداية كتبت رسالة لابني واسمه سليمان على اسم والدي رحمة الله عليه، يوم ورد إلى نعي الوالد وأنا في هذا المكان أقسمت على الله إن وهب لي غلاما زكيا سوف يرث والدي الحاج سليمان اسمه ويكون رمزا لهذا الرجل الكريم وتحقق ذلك وسمي بسليمان.. أحب أن أناديه أيضا بصلاح الدين أسوة بالأيوبي الملك الناصر والقائد العسكري الشجاع.

أمده الله بالتوفيق ويكون شاعرا وثوريا إلى النخاع مثلك يا شيخ مفدي.

بوركت.. أسميته على جده فهما محور ما أقدسه من حب، شريكة حياتي أيضا تقاسمني جهد الكفاح بطريقتها في تربية الأولاد.. المهم كتبت له رسالة أخبره عن يومياتنا هنا وأسأله عن الدراسة وعن الامتحانات وصححت له بعض الأخطاء النحوية وسألته أي لغة اختار ونصحته بالإنجليزية فهي لغة العلم والاختراع

والتفاهم وعن أخته الصغيرة هل بدأت تتحدث وبطبيعة الحال سألت عن والدته فهي مدرسة حملت على عاتقها تربيتهم وأعطت كل شيء تعويضا لبعدي مكرها عنهم. يا سي مسعود قد مال خاطري وقلبي وروحي لبلادي كيف لا أشتق للدفاع عنها بكل ما املك ليسعدوا في حرية وعيش كريم.

صدقت، الحرية أثمن ما في الوجود... لذلك ثمنها غالي... العبرة بالخواتيم، طريق الاستقلال التام تمهده الدماء لكي تنعم أن تكون سيد نفسك ويرعاك القانون العادل الذي يضمن عيشة كريمة للأجيال القادمة.

فعلا هذا الطريق صعب يتطلب الكثير من التضحيات وماذا كتبت أيضا؟ عذرا إني أسألك كثيرا فالحديث معك أمر بالغ الأهمية ويضفي على النفس سكينة ويبعث بالأمل وأخشى أن لا أراك مجددا... عليك أيضا أن تعتني بنفسك جيدا فبلادنا تحتاجك وكلامك ربيع القلوب.

شكرا على وصفك، بالعكس أشكرك على حرصك وكلامك. سنلتقي بإذن الله وبلادنا حرة ومستقلة ...انتظر كتبت أبياتا وصفت فيها علاقتي بالزنزانة وبمن أوكل تنفيذ أساليب الترهيب والتعذيب ظنا منه أن هكذا تنتزع المبادئ وتُمحى الأحلام والتطلعات وهم على عكس ذلك.. يزيدنا الأمر ثباتا في السجون سواء نحن في الطابق العلوي أو الأخوات المجاهدات المناضلات في الطابق الأرضي وأيضا لخاوة في الجبال والسهول وأي أحد في أي شبر من تراب الجزائر يخطط ويسعى أن يقتلع جذور هذا المستعمر ...سوف اقرأ لك بعض الأبيات..

سيان عندي مفتوح ومنغل — يا سجن بابك أم شدت به الحلق
أم السياط بها الجلاد يلهبني — أم خازن النار يكويني فأصطفق
والحوض حوض وإن شتى منابعه — ألقى إلى القعر أم أسقى فأنشرق
سري عظيم فلا التعذيب يسمح لي — نطقا ورب ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن ما أنت؟ لا أخشاك تعرفني — من يحذق البحر لا يحذق به الغرق
إني بلوتك في ضيق وفي سعة — وذقت كأسك، لا حقد ولا حنق
أنام ملء عيوني غبطة وضى — على صياصيك لا هم ولا قلق
طوع الكرى وأناشيدي تهدهدني — وظلمة الليل تغريني فأنطلق
والروح تهزأ بالسجان ساخرة — هيهات يدركها أيان تنزلق
تنساب في ملكوت الله سابحة — لا الفجر إن لاح يفشيها ولا الغسق

يارب عجل بنصركم وعدت به
وأنت يا سجن .. لو أفلت ناصيتي
لا أبتغي العز إلا في مغامرة
روحي .. وهبتك يا روحي، فدا وطني

فإن بابك ، باب ليس ينغلق
رأيتني، لخطوط النار أخترق
إن السماوات، للمقدام تنفلق
زلفى إلى الله، لا من ولا ملق

لم يقتصر النضال والعمليات الفدائية على الرجال فحسب بل كانت المرأة الجزائرية حاضرة وبقوة.. رفيقة السلاح.. فدائية ومجاهدة.

في الأرياف والقرى كانت تحضر ما توفر من قوت يومها للمقاومين حين يختبئون، أما في المدن فدورها كان بطوليا أيضا وبامتياز، تخاطر وتقف ندا ومنفذا للعديد من العمليات الكبيرة.. أسوة بالمقاومات في تاريخ البلاد كمثل لآلة فاطمة نسومر[1]

جميلات حملن لقب الفدائيات مثل العديد من بنات بلد جميل اسمه الجزائر. التهمة كانت حب الوطن والتضحية من أجله، البعض منهن استشهدن وأخريات ألقى عليهن القبض فذاقوا العذاب في غياهب السجن لكن بصلابتهن وبطولاتهن أضحوا حديث العالم.

في باحة سجن بربروس كانت فسحة الأخبار العاجلة تتوارد وتتسع. الوافدون الجدد لا يبخلون رفقاء الزنزانة والقضية بالمستجدات. تلك الطفرة الصحية للروح الوطنية شملت الجميع وتنقلت بين أوساط نزلاء السجن فأصبح حديث الوطن موضوع كل الأوقات.

يا إخوان ..تتحدث الأخبار عن عملية كبيرة هنا في العاصمة شملت تجمع للمعمرين [2] في المقاهي وأيضا حانة تضم مجموعة من العساكر والضباط ويقال من نفذها مجموعة من الفتيات.

(1) لآلة فاطمة نسومر: واسمها الحقيقي هو فاطمة سيد أحمد أما "لآلة" فهو لفظ توقير أمازيغي يعني "السيدة"، ولدت عام 1830 وتعد من أبرز وجوه المقاومة الشعبية الجزائرية اشتركت في معركة 18 يوليو/تموز 1854 التي هزم فيها الفرنسيون وانسحبوا مخلفين أكثر من 800 قتيل منهم 25ضابطا.

(2) المعمرين: أو الأقدام السوداء تسمية تطلق على المستوطنين الأوروبيين الذين سكنوا أو وُلدوا في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي للمنطقة ما بين 1830-1962.

هذه هي الأخبار الجيدة يا سي علي... أخي ... كم أتمنى في هذه اللحظة أن أكون خارج هذا السجن اللعين لأفدي بلادي.

والله يا خويا خالد هذا تطور جيد أحسنت أخي فيك هذه الروح. ربما هذا العدو خدمنا من حيث لا يدري فجعل الكل في سجن واحد حتى الذي لم يكن له دراية بالنضال والثورة انضم وينتظر الفرصة...المهم انظروا إلى الصفحة الأولى لجريدة لوموند وعلى لسان مترجمها جاك ماسو، كتبت: عصابة من النساء تجاوزت الحواجز والمراقبة بمظهر أوروبي وفي التحريات هن طالبات جامعيات وأعمارهن لا تتجاوز العشرين...سبحان الله أصبح المطالب بحقه والمدافع عن أرضه عصابة.

يا سي علي كلامك صحيح والسي خالد أو غيره من الإخوة الموجودين معنا في السجن لأسباب غير سياسية وتحررية، فقد كانت فطرته تنتظر الموجه والمحفز فقط، وحب الوطن من المؤكد موجود في القلب وينبض به فالحمد لله على هذه النعمة وإن كانت في بلاء اسمه السجن أما عن الأخوات ... عظيمة بنت الجزائر تقف كتف لكتف مع إخوانها في السراء والضراء، الأحرار لا يهانون ولا يداس على كرامتهم بأي شكل من الأشكال.

فعلا يا شيخ مفدي حتى في المداشر المرأة تساند بشكل يستحق الثناء، منذ فترة في قرية بالقرب من منطقة بجاية الكل يتحدث عن بطلة اسمها فاطمة ظلت صامدة أمام تعذيب المجرم الفرنسي الملازم سنيك بعد عملية مداهمة بحثا عن عدد من المجاهدين من بينهم زوجها السي محمد أعراب. لكنها لم تبوح بشيء وهددها بالحرق وقام فعلا بصب البنزين عليها فما كان منها سوى أن بصقت في وجهه أمام مرأى من كانوا معه من الجنود، فأحرقت حية ولم تصرخ تحديا له لكيلا يعتقد انه قد هزمها ...أما عقاب هذا المجرم فقد كان سريعا، انتظرهم السي أعراب رفقة لخاوة على أطرف القرية وانتقم للجزائر ولروحها ببسالة وأنهى شرهم في تلك المنطقة رفقة من معه.

إن لله وإن إليه راجعون... هي شهيدة زوجة رجل بطل سيذكرهم التاريخ هكذا ولن يمحى ذكرهم يا شيخ قاسي حتى المناضلات هنا نالهن أيضا ما نالهن في السجن وتحملن بقلوب قوية وصبر شديد...عندما اسمع أصواتهن أثناء التعذيب

وحين يرددن الأناشيد.. أقف خاشعا لصلابتهن... هذه العمليات قد كسرت الحصار الذي يحاول الجيش الفرنسي ضربه على تحركات الفدائيين.

يقال يا شيخ مفدي... حتى من الفرنسيين أنفسهم من انشق وبساند الآن قضيتنا بقوة وهذا دليل إثبات أن المستعمر بدأ يتآكل وسيسقط لا محال.

إن شاء الله إن شاء الله يا سي علي، هذا أملنا مع مطلع كل يوم جديد. الأخوات المجاهدات لهن كل الثناء وإن القلب ليفرح لتطور مهامهن كان الدعم في البداية يقتصر على الاتصال بعائلات المجاهدين وتبليغ الرسائل أو مساعدات مالية تؤمّنها الجبهة لعائلات الثوار وكذا نقل رسائل بين قادتها والآن نسمع عن حمل السلاح والقتال ومداواة الجرحى والقيام بعمليات فدائية نوعية ومركزة وهذا مؤشر. أننا بخطى ثابتة نتقدم...كل فئات المجتمع بمختلف أعماره ومناطقه يناضل.

إلا من باع نفسه وجعلها رهينة لهذا العدو فحساباته خاسرة وسوف يبقى حركي ذليل يشهد عليه التاريخ بذلك إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

صدقت يا شيخ قاسي إنها من أبخس الصفات وأحقرها. المهم أن خبر اليوم مفرح، لنا أخوات في الميدان تحفهم الشجاعة من كل صوب.

أنا بنت الجزائر أنا بنت العرب ...

يوم نادي المنادي ودعا للكفاح — قمت احمي بلادي وتركت المزاح
وصدقت جهادي وغدوت الجناح — انبري للأعادي وأداوي الجراح
في صفوف القتال أنا ألهب نارا — من أعالي الجبال أنا أدعو البدارا
في معاني النضال أنا كنت المنارا — وتركت الرجال في جهادي حيارا...

رغم أن الجميلات استطعن رفقة إخوانهم المجاهدين تنفيذ العديد من العمليات شملت أماكن جديدة وفي وضح النهار إلا أن القمع البوليسي بلغ حده الأقصى في المدن والأرياف وبشكل عشوائي كانت الاعتقالات واسعة والإعدامات الميدانية بالجملة صادمة.

حمل شهر مارس/ آذار خبرا حزينا للقضية. فكلما استشهد أحد من القادة أو ألقى القبض عليهم سارع مفدي للتغلب على حزنه لرفع معنويات من حوله من خلال

اجتماعه برفقائه في السجن وأيضا من خلال كتاباته ترجمان وجدانه والتي كانت تعبر حيز المكان.. فالحرب النفسية نقطة حساسة ولا مجال للعودة إلى الوراء.

في مكتب اندريه موتيه الحاكم العام الجديد في الجزائر.. الفرحة عارمة، يضحك الحاكم مطولا ثم يقول بلغة التعالي:

جنرال أوساريس ..أريد أن اسمع هذه الأخبار مرة أخرى... هيا هاه.

نعم حضرة... لقد انتهى الأمر وتمت العملية كما يجب، لا وجود له في الحياة، علينا أن نفرح كثيرا الليلة ونشرب نخب هذا الانجاز الكبير..إلقاء القبض عليه لم يكن سهلا.

كان العقيد مارسيل بيجار قلقا و يدرك أن من يتحدثون عنه واحد من ألف الفدائيين... قاطعهم قائلا ... *يجب أن لا نبالغ في الابتهاج، إن وجود بن مهيدي و أمثاله كان خطر كبير على أمن فرنسا و هنالك العديد على شاكلتهم لقد تلقيت رصاصتين من هؤلاء الفلاقة كادت تودي بحياتي لا اعرف كيف يتحركون، ما يزعجني أن بن مهيدي رغم كل التعذيب و التحقيقات الطويلة و الدماء التي غيرت ملامح وجهه لكنه لم يعترف عن أي احد و أكثر من هذا بقي يبتسم و يرفع يده علامة النصر في وجهي و هذا ما أثار جنوني. .. علينا أن لا نفرح كثيرا إلى أن نقضي عليهم جميعا.*

كان الحاكم اندريه مصرا على ضرورة الابتهاج. فهو يدرك أنها قد شُحت بين أوساطهم. المهم انه انتهى ولم يعد موجودا وتأكد سيلحق به البقية ... *إن سر تحركهم بهذه السهولة معلوم لدينا لكن ليس تفصيلا، تحركهم بحرية لأنهم من الشعب و لا نستطيع التفريق بينهم و بين عموم الناس.*

سيدي الحاكم السرية أيضا تجعلهم يباغتوننا، علينا أن نكثف من عملية الاعتقالات، خطر خلية العاصمة والبليدة يزداد يجب أن نقضي عليهم فهم من يصنعون القنابل ويهددون أمن مواطنينا هنا. يجب أن نضع أناسا منهم وبكثرة يعملوا لصالحنا.

إذا جدد مهام من تثق بهم حضرة الجنرال.

سوف نقوم بهذا الأمر لكي لا نصادف بن مهيدي آخر. هو فعلا انتهى لكنه كان عنيدا وشجاعا لو أن لي ثلة من أمثاله لغزوت هذا العالم.

فعلا عقيد بيجار ...لقد كان بن مهيدي جد عنيد، إن الملازم الذي ألقى القبض عليه وحقق معه في البداية عندما قال له أنت قائد التمرد وها قد وقعت بين أيدينا وانتهت معركة الجزائر بل خسرتم الجزائر كلها...أجاب ببرودة أعصاب مستفزا للجميع قائلا له.. لا تصدق ذلك إن مات رجل واحد فسيحل آخر مكانه.

لقد سئمت من هذا الكلام لقد دعوتكما لنفرح سويا بنخب النصر هذا لكن لا جدوى منكما... المهم يجب أن تتوقف هذه التفجيرات اليوم قبل الغد، فقد أثاروا الرأي العام ولا يجب أن يصدقهم أحد. الجزائر فرنسية وفقط...يجب أن تعود الأمور إلى سابق عهدها ولو كلفنا الأمر أن نقتل الجميع، هيا تفضلا سوف انتظر التقارير في أقرب وقت.

لم يشفع عديد القوات والوحدات الإضافية الخاصة التي استقدمتها فرنسا على أرض الجزائر والتي رفعت من خلالها وتيرة التنكيل والتقتيل من فقدان هيبتها العسكرية أمام ألف أو يزيدون من الفدائيين الماضون في قضية عادلة ...كان الشعب بمختلف فئاته سندا وداعما لها.

أربع سنوات من ثورة التحرير عُمدت بدماء الشهداء وصرخات السجناء وقهر الناس في القرى كما في المدن.. كانت كفيلة بوضع القضية في سكتها الصحيحة. الخطوات كانت تقترب رغم المآسي.

نُقل مفدي إلى سجن آخر وكان في منطقة البرواقية جنوب مدينة الجزائر لم تتغير الأجواء، قلوب الناس قد اجتمعت داخل السجن وخارجه على هدف واحد. الكل كان يلتحق بموكب التحرير.

رغم التضييق المنتظر في سجنه الجديد استطاع مفدي أن يجمع شمل الموردين الوطنيين. الكل كان يصغي باهتمام فتلك لحظة لا تعوض.

وأخير استطعنا أن نجتمع... سأحاول أن أحدثكم بسرعة لكسب الوقت. تصرفوا بشكل عادي. اليوم يصادف حدث مهم وبداية صفحة عظيمة دونها أبطال أوفياء كل بطريقته لكن المقصد واحد، منذ أربع سنوات اندلعت الثورة ولبّ النداء كل من يحب تراب هذا الوطن. الكفاح لم يتوقف وكما ترون حكومات المستعمر تتساقط كأوراق الخريف الواحدة تلو الأخرى لأنها أدركت أننا لن نتراجع وعلى بعد خطوات من النصر العظيم.

إننا نتعرض هنا يا أخي مفدي إلى أنواع كثيرة من الممارسات اللاإنسانية، وجنودهم يقتحمون علينا الزنزانات ونحن نائمون وبأيديهم عِصي فيشرعون بالضرب والتفتيش بكلّ وحشية وليس على لسانهم سوى بذيء الكلام...والله انتظر الفرصة لأشفي غليلي فيهم وأنتقم لبلادي...أخونا العاصيمي انظر إليه لقد ناله منهم ما نال لأنه لم يلتزم حسب رأيهم وجابههم بيده وهو أعزل في سجنهم هذا.

هذه الآلام والجروح نقطة في بحر محبتي لبلدي. سيأتي يومهم يا سي الحسين و نرمي بهم في البحر مثلما جاؤوا، يخبرني ليلة البارحة النزيل الجديد الذي اقتيد للتحقق الآن و اسمه إسماعيل، قد كان في سجن وهران و رُحل إلى هنا قال لي قبل مجيئه نُفذ منذ فترة في سجن وهران حكم الإعدام في حق مناضل و اسمه شريط علي الشريف يخبرني انه كان متجها لتنفيذ عملية رفقة مجموعة من لخاوة لكن يهودي حقير وشى بهم ففشلت العملية، فما كان من المناضل شريط إلى أن يقتص من ذلك اليهودي و قتله و ظل في الميدان إلى أن ألقي القبض عليه، قال لي لقد كان بطلا حتى عند تنفيذ الحكم على بعد أمتار قليلة عن المقصلة، كان قويا متماسكا. يكبر ويردد سوف تستقل الجزائر واخذ يقول للضباط الفرنسيس وحراس السجن بأعلى صوت.. إن الثورة لن تتوقف بهذه القطعة من الحديد وإنكم ستشجعون أكثر، آلاف الجزائريين لتلبية نداء التحرير وعندما اقترب منه الشيخ لتلقينه الشهادة قبل إعدامه... قال له اعرفها ولا داعي أن تخبرني بها. دورك أكبر من هذا عليك أن تُعلم تلاميذك في المحضرة غدا، إنني واحد من الجزائريين الشرفاء وقفت ندا لهؤلاء الأعداء. أخبرهم أن الاستقلال قريب. ثم ويقول اخذ يردد.. لقد دخلتم بالقوة وستخرجون بالقوة إلى أن استشهد رحمة الله عليه. أخبرني إسماعيل أن عناصر من جيش المستعمر بتفاوت رتبهم بدا الخوف على وجههم.

عم الصمت بعدما روى لهم العاصيمي تفاصيل ما حَدثَهُ به إسماعيل. أما في ذهن مفدي فقد عادت مشهدية استشهاد بن مهيدي، لكنه بقي متماسكا وقال..

هذا هو المستعمر أينما كان، سِمته الغدر وجبان يخشى المواجهة، لا يعرف سوى الإجرام وقد تخطى عقودا طويلة وهو يقتل وينكل، أما عن الأوصاف والكلام البذيء ونحن عزل وبالأغلال مقيدين فلا يزيدنا إلا إصرار وعزما والدليل

أن الفدائيين يتسابقون لتنفيذ العمليات لتحرير البلاد ونيل الشهادة وكنت قد قلتها يوما..

هذى دمانا الغالية دفاقة وعلى الحبال علامنا خافقة

وللجهاد أرواحنا سباقة جيش التحرير إحنا... ماناش فلاقة [1]

سوف ينجلي هذا الظلم عاجلا أم آجلا ونسترجع حقوقنا ونتخلص من كل ما نعانيه رفقة شعبنا. هذا عربون محبة لهذه الأرض المهم أن نصبر ونصمد، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

أبياتك جميلة يا شيخ. يجب أن لا ننسى أن الثورة الآن في كل أرجاء الجزائر تقريبا ولا صوت إلا لصوت الرصاص و هذا دليل عافية.... والله الحق يقال إننا نستعذب هذا الكلام في كل مجلس تكون فيه وتخفف عنا ضيق السجن ونستلهم من حبك للوطن وهذا يغرس فينا قوة التحمل وروح التفاؤل حتى لخاوة في ساحات القتال يرددون أشعارك التي تزيدهم حماسة ومن جهتي انتظر فرصة الطعام هذه لأسمعك.

شكرا لك يا شيخ نذير نحن هنا لنواسي ونتعلم من بعضنا إلى أن يفك الله أسرنا وأسر بلادنا ونعود للميدان والدفاع بما أوتينا عن أرضنا.

آمين يا رب العالمين. منذ أن جلست رأيتك تضع هذه الورقة إلى جانبك يعني أنك كتبت شيئا للمناسبة أليس كذلك؟

ملاحظتك قوية. وتحليلك صائب، أجل كتبت بعض الأبيات ولكن قبل ذلك يجب أن نذكر أنفسنا دائما أن أجدادنا ومن لحقوا بهم قد روت دماؤهم هذه الأرض منذ أكثر من قرن، علينا أن نستمر و لا نسقط وفاءا للأسلاف وإن سقطنا فلنكن شهداء لأجل تراب بلادنا، فهنا الشرف كله...يا إخواني العيون شاخصة تراقبنا.. لن اتلوا على مسامعكم ما كتبت ولكن سوف تنتقل هذه الورقة من شخص إلى أخر ليقرأها الجميع ويستشعر كل كلمة فيها. أيضا قبل أن نقوم من هذا المكان علينا قراءة فاتحة الكتاب على أرواح شهدائنا الطاهرة...

(1) الأبيات بالعامية وشرحها: هذه دمائنا الغالية تتدفق وعلى الجبال الأعلام تخفق وإلى الجهاد الأرواح تتسابق.. نحن جيش التحرير ولسنا قطع طرق.

هذا (نوفمبرُ)... قم وحي المدفعا ... واذكر جهادك... والسنين الأربعا
واقرأ كتابك، للأنام مفصلا ... تقرأ به الدنيا الحديثَ الأروعا
وأصدع بثورتك الزمان وأهله ... واقرعْ بدولتك الورى و المجمعا
واعقد لحقك، في الملاحم ندوة ... يقِف الزمان بها خطيبا مصْقعا
وقل الجزائر وأصغ إن ذكر اسمها ... تجد الجبابرَ ساجدين وركّعا
إن الجزائر في الوجود رسالة ... الشعب حرّرها... وربك وقعا
إن الجزائر قطعة قدسية ... في الكون لحنها الرصاص ووقعا
وقصيدة أزلية أبياتها ... حمراءُ... كان لها (نفمبرُ) مطلعا
نظمت قوافيها الجماجم في الوغى ... وسقى النجيع رويّها.. فتدفعا
غنّى بها حر الضمير فأيقظت ... شعْبا إلى التحرير شمّر مُسرعا
سمعَ الأصم دويها فعنا لها ... ورأى بها الأعمى الطريق الانصعا

حرية على أطراف الوطن

انتهت أيام مفدي مع السجن بعد سنوات عرف فيها كباقي رفاقه المعتقلين كل أنواع التعذيب وقد أضناه التعب والمرض لكنه كان رجلا صلبا وعتيدا وفور خروجه بقي محل مراقبة ليضطر إلى التسلسل عبر الحدود من وهران نحو المغرب متخفيا في شاحنة أحد المناضلين لينتقل بعد ذلك إلى تونس وفي نيته نضال وتحدي للمستعمر من نوع آخر.

العودة إلى تونس عام 1960 كانت بحد ذاتها خطوة وجدانية إلى البلد الذي أسس فيه بداية كيانه المعرفي والفعل الثوري، غادرها شابا وهو على الطريق يخط بقلمه وعاد إليها مناضلا عروبيا بكتاباته لأجل وطنه.

في صحيفة المجاهد اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني الجزائري في تونس كان يقضي ساعاته اليومية في كتابة تلك الأسطر المليئة بالوطنية والحث على الكفاح. كان يخاطب الناس بها.. فهي سبيل الآن لدعم ما تبقى من معركة النصر.

صباح سعيد للسيد مفدي... أتمنى أن تكون على ما يرام؟

أهلا أهلا بالسيد فرانز فانون... أهلا بصديقي الدكتور ومرحبا بك... صباحك اسعد، أنا الحمد لله كل الأمور أصبحت بخير وأحلام السجن المفزعة قد ذهبت دون رجعة وتلاشى القلق، والله كلامك أيضا علاجا شافيا لا يُعلى عليه...تفضل استرح.

أشكرك يا شاعر ثورة الأحرار، عفوا أنا في عجالة من أمري وجئت لأودعك سوف أتوجه إلى غانا فقد اختارتني جبهة التحرير أن أكون سفيرا هنالك.

إلى غانا!! المسافة بعيدة عنا؟ مم...ولكنه أمر عظيم أن يستفاد من فكرك النير وكتاباتك التحررية هنالك، الشعوب تتوق للحرية وتحرير الفكر .... سأفتقدك كثيرا.

وأنا أيضا سأفتقدك وسأفتقد أيضا تونس والجزائر التي أوصيت أن ادفن في أرضها حين تنقضي أيامي... المهم سوف أتابع أخبارك ونصوصك على الصحيفة، صدقا ما تكتبه يا أخي مفدي في العمود الصباحي يلهب الخاطر وتجعل الواحد منا قنبلة موقوتة تستميت للدفاع عن الحق.

تتحدث بسرعة وكأنك تريد أن تقول كل شيء.. إن شاء الله العمر الطويل وتزور الجزائر وهي تنعم باستقلالها، أشكرك على وصفك، من لحظات كان صديقي ويدعى عمار الدخلاوي يخبرني نفس الانطباع.. اسعد كثيرا عندما أنال ثقة القارئ وإعجابه.

الحق يقال، أنت متقن وصادق في عملك كيف ما كان وطاقة نضالية مسعرة لأي ثورة.

أنت أيضا نبراسا لفكر نير كلما ألتقي بك أتذكر كلامك. لديك جملة عميقة تخيف أحيانا حين تقول.. على الشعب أن يدرك أن الاستقلال الوطني يُبرز وقائع أخرى كثيرة هي في بعض الأحيان متباعدة بل ومتعارضة. فهناك أجزاء منه لها مصالح خاصة لا تتفق اتفاقاً كاملاً دائماً مع المصلحة الوطنية..أعتقد أمر كهذا قد يفسد فرحة استقلال الشعوب.

فعلا كثرة الآراء والسعي نحو المصالح الشخصية هي التي تشتتنا لكن الأهم كمرحلة أولى هو تحقيق الاستقلال وبعد ذلك تبدأ عملية البناء وهي الأصعب. استأذنك الآن. سوف اذهب لجمع بعض الأغراض وترتيبها قبل السفر ولا تنسى انتظر مراسلاتك.

بطبيعة الحال سوف نبقى على تواصل دائم. تفضل إلى اللقاء. في أمان الله. في رعاية الله.

لحظة فراق الأحبة كانت تصيب قلب مفدي في الصميم، حِس الشاعر فيه يجعل شعور الفُرقة يتملكه بإحكام، كانت تلك لحظات قاسية لا يحبذها أبدا، بقي يفكر بخزائن وجدانه الممتلئة بحب بلده والتي فارقها مُكرهاً إلى أن رن هاتف مكتبه. كان رئيس تحرير جريدة الصباح الهادي العبيدي يدعوه لزيارته.

في الجزائر صوت المدافع وقصف الطائرات للقرى والمداشر لم يكن له بُعدا انتقاميا فحسب بل كان يوحي من زاوية أخرى تخبط المستعمر وانسداد الأفق أمامه فالحلول العسكرية لم تعد تجدي نفعا أمام شعب يقدم كل ما يملك فداءا لنيل الحرية...أرواح الشهداء كانت تعلوا إلى السماء تباعا ومعها عدد العمليات الفدائية يرتفع.

في مكتب رئيس تحرير جريدة الصباح كان أثير إذاعة تونس يصدح بصوت عالي...

...هنا صوت الجزائر المجاهدة الشقيقة.. فشلت سياسة ديغول في إدماج الجزائريين واعتبار ها جزء لا يتجزأ من فرنسا ...كما فشلت كل المشاريع على رأسها مشروع سلم الشجعان [1]. و في ظل الظروف الآنفة الذكر ازداد الوضع السياسي والاقتصادي في فرنسا تأزماً بحيث لم يبق لديغول أي مجال لقلب الهزيمة العسكرية إلى انتصار سياسي سوى الدعوة للشروع في مفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وقد دعا بشكل رسمي وعلني عبر خطابه الأخير...

جَمال دفاتر مفدي وترتيب أوراقه المزينة تسر الناظر إليها ومما لا يدعو للشك قارئها أو سامعها يقع في غرام أبياتها. بعد أن جلس وكان قد وضعها أمامه لم تغفل عن أعين رئيس التحرير وهو ينظر إليها من وقت إلى آخر.

أتسمع.. يا أخي لهادي؟ كلها أفكار توحي أن هذا المستعمر قد انتهى بشكل كامل وهو يشعر بذلك ويخشى الآن أن يخسر الجزائر مثلما خسر الهند الصينية ويضحي بجنوده ومستوطنيه وينسحب...لغة الشعب تبدلت وعادت إلى أصلها إلى صفوف القتال والكفاح...

فعلا مشاريع تحاول إفراغ الثورة من محتواها وإظهارها ثورة جياع لأجل تمزيق صفها لكن الرصاص قال كلمته...يا سي مفدي.

معك حق كلمته في الميدان هي العليا ..والله يا سي لهادي لقد طابق كلامك ما كتبت. اسمع.. سأقرأ لك هذه الأبيات.

نطق الرصاصُ فما يُباحُ كلامُ ... وجرى القصاصُ فما يُتاحُ ملامُ
وقضى الزمان فلا مردّ لحكمه ... وجرى القضاءُ وتمّت الأحكامُ
السيف أصدق لهجة من أحرف ... كُتبتْ فكان بيانها الإبهامُ
والنارُ أصدقُ حجّة فاكتب بها ... ما شئت تُصعق عندها الأحلامُ
لغة القنابل في البيان فصيحة ... وُضعتْ لمن في مسمعيه صمامُ
وروائحُ البارود مسكٌ نوافح ... سُجرتْ لمن في منخريه زُكامُ
والحقُ والرشاشُ إن نطقا معاً ... عنت الوجوهُ وخرّت الأصنامُ

(1) مشروع سلم الشجعان: هي مناورة سياسية وحرب نفسية أطلقها الجنرال ديغول في نهاية 1958 تقضي باستسلام الثوار وتسليم أسلحتهم مقابل ضمان حريتهم وسلامتهم.

أحسنت، جوابك شعرا كما عهدتك.. هكذا تسترجع الحقوق، إن شارل ديغول يتلاعب واهما ويريد ربح الوقت للحفاظ على أمن فرنسا وتأسيس جمهوريته والبقاء في الجزائر للأبد وفكرة الاستفتاء ليست إلا مماطلة وجس لنبض الناس.

نعم هي كذلك ...في نوفمبر 54 بايع الشعب الثورة ولن يتراجع والملايين ضحت بأرواحها أما لديغول فقلت عن أفكاره وأكررها...

و إذا السياسة لم تفوض أمرها ... للنار... كانت خدعة وتصنعا
إني رأيت الكون يسجد خاشعا ... للحق... والرشاش... إن نطقا معا
خبر فرنسا... يا زمان... بأننا ... هيهات في استقلالنا أن نُخدعا
واستفت يا ديغولُ شعبك... إنه ... حكم الزمان... فما عسى أن تصنعا؟
شعب الجزائر قال في استفتائه ... لا... لن أبيح من الجزائر إصبعا
واختار يوم (الاقتراع) (نفمبرا) ... فمضى... وصمّم أن يثور... ويقرعا

فعلاً هذه هي خلاصة القول كله، متاعك اليوم وافر، ما قصة ما تحمل من أوراق جميلة؟

والله هذه حلقات إذاعية قمت بتحضيرها وبسجية المخاطب سوف أقدمها ضمن برنامج عبر صوت الجمهورية الجزائرية هنا في بلدنا الشقيقة تونس وسأتحدث فيها عن دور الصحافة في الجزائر سواء التي كانت موالية للمستعمر وبتمويله أو تلك التي كانت تنتهج مقاومة قلمية إصلاحية، كما سأتحدث عن الشعر وتاريخ المقاومة وعن الثقافة والتراث وكل ما يتعلق بالجزائر.

أمر بالغ الأهمية، إن هذا الدور مكمل للكفاح المسلح في البلاد ويوازي العمل السياسي أيضا.

كلامك صحيح، من المهم جدا يا صديقي أن يكون الواحد منا واجهة ثقافية تخبر الناس في مختلف الدول عن القضية الجزائرية وكفاح أبنائها ونضالهم، هناك العديد من المؤتمرات والفعاليات الثقافية في بعض البلدان العربية سوف أسعى أن أكون حاضرا وممثلا لبلدي فيها للحديث شعرا عن الجزائر وجمعهم على كلمة سواء تحكي عن استقلال الجزائر وأحفز كل أديب وشاعر ما استطعت للتغني بمقاومة بلدي لأنها نموذجا للكفاح فمتى ما كتبنا تاريخنا ونضالنا سويا يكون النتاج لكل العرب ورصيدا يحتذى به ومبعثا للاعتزاز والفخر.

انه عمل جبار وأنت أهل لذلك.

وأنت أيضا قلمك يساند ويبدع.. أريد أن أخبرك بأمر ما اليوم ابني سليمان بعث لي برسالة يخبرني انه التحق بساحة الشرف وانضم إلى صفوف جيش التحرير مجاهدا ومدافعا على الجزائر وقد اختار الفاتح من نوفمبر للالتحاق بهذا الشرف الرفيع.

جميل.. كم عمره الآن؟

هو في الثامنة عشرة لقد أسعدني كثيرا هذا الأمر.. سأقر لك كيف ختم رسالته لي، اسمع:

"سأكون أبتي العزيز كما شئت، فإذا كُتبت لي السلامة عشت مع إخواني حرا سعيدا.. وإذا مت فما أنا بأول شهيد يغرس في أرض الجزائر ولتحيا الجزائر..."

ونعم التربية، تحيا الجزائر وإن شاء الله تلتقي بابنك وبجميع أفراد عائلتك وأنتم تنعموا باستقلال رسم تاريخا أبديا بتضحيات الأرواح الطاهرة ..أخبرني عن ردك كيف كان؟ أعلم أن إيقاع كلامك دائما قوي فكيف إن كان موجها إلى شخص من صلبك.

من المؤكد أعتز به وافتخر ولكن في موضوع الوطن والله صراحة لا فرق عندي بين أحد إلا بقيمة عطائه ودرجة الحرية وحب الوطن في روحه وقلبه وحلم الوحدة والمقاومة في نفسه.. ولكني كالعادة كتبت من قلبي وفؤادي قائلا..

أي بني ...

هكذا يفعل أبناء الجزائر
سر إلى الميدان، مأمون الخطى
أنت جندي، بساحات الفدا
زغردي يا أمه وافتخري
كن شواظا، و تنزل كالقضا
صلواتي لك، والله معك
فإذا ما عشت، حققت الرجاء
هكذا يفعل أبناء الجزائر ....

يا صلاح الدين، في ارض الجزائر
وتطور، في صفوف الجيش، ثائر
وأنا، في ثورة التحرير، شاعر
فابنك الشهم فدائي مغامر
وتفجر، فوق هامات الجبابر
سوف ألقاك بأعياد البشائر
وإذا ما مت، فلتحي الجزائر

لا كلام بعد كلامك يا أخي العزيز مفدي.. سوف يسعد بهذه الكلمات كثيرا وهي رسالة تحفيز لكل مقاوم على جبهة القتال. علينا أن نحضر عملا سويا يكون تاريخيا واسعا وعميقا.

وأنا جاهز متى ما أردت نحدد الموعد لمناقشة كل الأفكار والإطار العام للعمل.

اتفقنا إذا أيها الأخ الصديق يسعدني عودة نشاطك وصحتك.

الحمد لله على كل حال.. شكرا على لطفك.

ازداد وضع فرنسا تأزما سياسيا واقتصاديا كانت حرب الشوارع والصمود في الجبال والتفاف الشعب حول الثورة يأرق حكومة المستعمر. لم يبق لديغول أي مجال أو فرصة لقلب الهزيمة العسكرية إلى انتصار سياسي سوى الدعوة للشروع في مفاوضات مع الحكومة المؤقتة الجزائرية وقد دعا بشكل رسمي وعلني مرة أخرى إلى الجلوس حول طاولة التفاوض هذا الأمر جعل الساحة أكثر التهابا ما أدى إلى ظهور منظمة الجيش السري الفرنسي [1] والتي ارتكبت العديد من المجازر الإرهابية غدرا في حق كل شرائح المجتمع الجزائري.

في الضفة الأخرى كان مفدي سفيرا متطوعا بشعره يجوب البلدان العربية ويحظى بتقدير كبير متحدثا بلسان وطنه بين المثقفين، جاعلا من كفاح الجزائر ونضاله نقطة التقاء الجغرافيا العربية بأسرها حول موقف واحد.

كان يسارع الأيام ويسابق الدقائق واللحظات في كل بلد يزورها...العرب أشقاء تجمعنا بهم القومية العربية يجب أن يعرفوا تفاصيل ما يحدث عندنا فتحركهم عامل دعم أيضا.. تلك كانت رؤية مفدي رسول الثورة ولسان ثقافتها الناطق.

لم تختلف أحوال مفدي في تونس... فبيته كان أيضا ملتقى المثقفين، زواره كانوا كثر وكرمه الفكري وجوده الأدبي جعل باب قلبه مفتوح لكل مساند لقضية بلده، متطلعا للخير في هذه الأمة.

والله افتقدتك كثيرا.. أربعة أشهر يا رجل دون أن أراك كنت أطالع كتاباتك وأخبار تنقلاتك.

(1) الجيش السري الفرنسي (OAS) : هي منظمة إرهابية فرنسية تضم الموالين لأطروحة الجزائر فرنسية و ذلك بالاعتماد على الترهيب بالنقتل فقط.

صدقني يا أخي الحبيب كانت كلمح البصر.... تفضل... تفضل من هنا مرحبا بك.. لقد كانت رحلة نضالية شعرية بامتياز... استرح، الشاي الأخضر وبالنعناع الجزائري جاهز وبانتظارك.

هاه شكرا.. صراحة استعذب مذاقه ولا يحلوا إلا معك يا حضرة الشاعر، لقد سمعت بجولتك وجئتك مباركا على المرتبة الأولى، حدثني كيف كان مهرجان دمشق للشعر ومن حضر ومع من التقيت؟

مبدئيا مبروك للجزائر أولا، لقد عقدت النية قبل أن أسافر أن أمثل بلدي أحسن تمثيل وأخبر الجميع عن قضية بلدي وما أثلج خاطري، أن جميع الشعراء والكتاب ومن الحضور استشعروا بحماسة ما نحن فيه في الجزائر ومثل هذا الإحساس يجعلهم يكتبون هم أيضا عن البطولات والتضحيات وعن الأماكن ومواقع المقاومة والكفاح وإن لم يزوروها بأجسادهم فحاسة الصدق بمحبة عند الإبداع تغني الوجدان عن التنقل بالجسد.

جميل.. الحق يقال، أنت مثال الوحدة وتتجه دائما إلى الأفق الرحيب الذي يحتضن كل العالم العربي.. وأين سافرت أيضا؟

والله لو استطعت أن أزور كل بلدان العالم وأخبرهم عن وطني ما ترددت لحظة واحدة، في تلك الرحلة زرت القاهرة ودمشق وبيروت والأردن والعراق وبلاد الحجاز وسجلت فيها أحاديث إذاعية ومقابلات صحفية وأمسيات شعرية عديدة.

وهذا ما أريد سماعه منك عن أمسياتك الشعرية أخبرني ماذا كتبت وبما جاد به فؤادك أعرفك جيدا حين تجتمع كل الظروف أمامك وتبدأ بالكتابة.

تفضل الشاي قد أصبح جاهزا.. انتظر سوف احضر دفتري فلقد دونت لكل بلد زرته أبيات محبة وتحية.

اليوم كله معك المهم أني أسمعك. وسوف أسكب الشاي لي ولك.

كان مفدي يسعد كثيرا كلما شارك الناس عقله ووجدانه.. فتلك الأبيات قد غرفت من روحه ولأجل بلده.

أنت في دارك أخي الحبيب.. اسمع في مهرجان دمشق قلت..
سل العروبة هل ضجّت لشكوانا وسل أمية... هل رجّت لبلوانا
ويا ذرى الشام... هل هاجت مواجدنا فباركَ الشعر في ناديكِ لقيانا
ويا دمشق... هل ابتلّت جوانحنا بعد التنائي الذي قد كان أضنانا
وهل درى السجن أني بعد وحشته ألقى بجلّق أصحاباً وخِلاّنا
هي المشاعر... شبّتها لواعجنا فصاغها الشعر حباً من حنايانا
هي التسابيح من أعماق مغربنا يصغي بها مِهرجان الشعر نجوانا.

..كم أنت رائع أخي مفدي..

شكرا.. أما عن مصر فقلت:

ولَمِصرُ.. دارٌ للعروبة حُرّةٌ تأوي الكرامَ.. وتُسند المتطلّعا
سحرتْ روائعُها المدائنَ عندما ألقى عصاه بها «الكليمُ».. فروّعا
وتحدّث الهرمُ الرهيب مباهياً بجلالها الدنيا.. فأنطق «يُوشَعا»
واللهُ سطّر لوحَها بيمينهِ وبنهرها.. سكبَ الجمالَ فأبدعا
النيلُ فتّحَ للصديق ذراعَهُ والشعبُ فتّحَ للشقيق الأضلعَا.

ولفلسطين الحبيبة والتي لا تفارق خاطري ناديتها.. فلسطين على الصليب..

أناديكِ في الصّرصر العاتيهْ وبين قواصفها الناريه
وأدعوكِ بين أزيز الوغى وبين جماجمها الجائيه
وأذكر جرحكِ في حربنا وفي ثورة المغرب القانيه
فلسطينُ... يامهبط الأنبياْ ويا قبلة العرب الثانيه
ويا حجّة الله في أرضه ويا هبة الأزل، السماميه
ويا قدساً، باعهُ آدم كما باع جنته العاليه
وأضحى ابنه - بين إخوانه يلقبّه العرْبُ، بالجاليه...
فلسطينُ، والعُرب في سكرة قد انحدروا بك للهاويه
رماكِ الزمان بكل لئيمٍ زنيمٍ، من الفئة الباغيه
وكل شريد على ظهرها تسخّره, بطنه الخاويه
وألقى بكِ الدهر شُذّاذه ومن لم تؤدّبْهُ المانيه
وصبّ بكِ الغرَب أقذاره ورجسَ نفاياته الباقيه
وحط ابنُ صهيونَ - أنذالهُ بأرضكِ، آمرةً ناهيه

ومن ليس يهتزُّ فيه ضمير ... ولا في حوانيهِ إنسانيه
وبالمال تغدقه الصدقات ... مضت فيك بائعة شاريه.

مبدع بالفطرة.. من أين ينبع الشعر عندك؟؟ من أين تأتي بكل هذا؟ أكمل يا صديقي الصدوق، أكمل.

أما عن لبنان وقد أجاد الشاعر نزار في الحديث عنها، هنالك كان كل جماد يتحدث عن نفسه سميتها القصيدة معجزة الصانع.. قلت فيها..

لبنان يا معجزة الصانع ... يا لوحة من ريشة البارع
يا بصمة الرب على أرضه ... وخاتما من خطه الناصع
يا قصة يكتبها آدمٌ ... يحكي بها عن خلده الضائع
وجنة فيحاء في رحبها ... كنيسة تلتف بالجامع
ونهرك الباسط كف الرجا ... كالعابد المستغفر الخاشع
وشمسك الصفراء عند المسا ... في رعشة المستضعف الضارع.

المهم قابلت العديد من الشعراء والأدباء.. العين كانت شاخصة نحو الجزائر. العروبة جعلت من الكل يتألم. كل واحد التقيه أبادره بالدعوة إلى الجزائر، إلى الأرض التي سُقيت دما زكيا والتي بحوله تعالى سوف يزهر استقلال بها... عم قريب.

إن شاء الله كمثل هذا اليوم سنلتقي في الجزائر رفقة العديد من شعراء العرب نحي فرحة النصر الكبير.

يا رب ...سيكون يوم كبير، أحيانا أحاول أن أعيش تلك اللحظة مع نفسي واستبق الزمن وأجرب مذاقها.. طعمها لا مثيل له فكيف إن أضحى واقعا.

والله يا أخي العزيز مفدي، الجزائر قبلة للمقاومين الثائرين. أعطت درسا في النضال بكل فئات شعبها وتستحق النصر بعد كل ما بذل من نفس في سبيلها.

خطوات الاستقلال تسارعت أكثر من أي يوم مضى. إلى أن طل فجر يوم جديد يختلف عن مئة واثنين وثلاثون عاما. قوافل الشهداء تخطت الملايين ورغم مواكب المعطوبين والمتضررين من تلك الحرب الضروس. خرج كامل الشعب يحتفل...لم يبقى الاستعمار في بلادنا. أصبحت الجزائر حرة ...الكل يحمد الله على هذه اللحظة.

كان الخامس من يوليو/ جويلية من عام 1962 يوما استثنائيا، عاد تراب الأرض لأبنائه. كانت فرحة شاعر الثورة ومسعر وجدان مقاتليها لا توصف. في تلك اللحظة تغنى مفدي مرددا:

ومن دم شعبي وأكباده.. إلى النصر قدّمت قربانيه.

وقالت جزائرنا الغالية ... هو الصدق حقق آماليه.

عاد مفدي إلى الوطن الذي حلم به. عاد يستنشق هواءها دون مستعمر. عاد إلى بني يزقن أين الأحبة الذين فارقهم. زار الأحياء منهم والأموات. أخبر والديه في الثرى عن أن الجزائر عادت حرة مستقلة. عاد بعدها إلى العاصمة أين ناضل مع الرفاق.

بعدها بفترة ... مترجلا بين أزقة العاصمة يمشي إلى أن وقف في أعاليها متأملا ومودعا مرة أخرى. مسك بترابها مبتسما فهي عشقه الأول والأخير.. شعر بغربة بين الأحبة فالعودة لم يكتب لها الاستقرار لعله لم يجد ما كان ينتظر أن يراه أو ربما تذكر كلام صديق فرانز فانون عن ما قد يحدث للبلدان بعد استقلالها، غادر إلى تونس مجددا بعد أن ضاقت به الأحوال، كانت السنوات تنقضي من عمره ولا يزال يكتب عن الجزائر التي اسماها كما فاض به خاطره.. على سبيل الحب سلمى.

رسول الهوى بلغ سلامي إلى سل
وناجِ هواها علّ في الغيب رحمة
وبثّ شكاة من مشوق متيّم
أبيت أناجي الليل نجما كأنما
بلادي بلادي، ما ألذّ الهوى وما
بلادي ألا عطفٌ عليّ بنظرة
ومذ فتحت عيني المدامعُ أبصرت

وعاط حميّا ثغرها الباسم الألمى
تَدارَكْ هذا القلب أن ينقضي هما
له كبد حرى تضيق به غما
حبيب فؤادي صار مستترا ثمّا
أمرّ كؤوس الحب ممتزجا سمّا
حنانيك، ما هذا السلوّ ولا إثما
هواك فلا عار عليّ ولا لوما.

القسم الأخير

أخر المطاف

تونس العاصمة 1977

بقي مفدي على عادته لسنوات بين كتبه ومع كتاباته والتي تنقله بعيدا عن حيز الزمان والمكان.. كان ذلك اليوم رفقة تلميذه محمود في مكتبه يساعده في ترتيب مخطوطاته وشؤون الطباعة.

أستاذي مفدي.. لقد أتممت طباعة ما طلبت مني وأود أن اذكرك بأن لديك موعد مع صحفي بعد ساعة من الآن، اسم الصحفي والجريدة مدون على جدولك اليومي.

شكرا لك.. إن أردت المغادرة كي ترتاح يمكن لك ذلك ونلتقي غدا إن شاء الله في نفس الموعد لإتمام طباعة بعض المراسلات والقصائد.

وهو كذلك.. السلام عليكم.

وعليك السلام في أمان الله.

أيام مفدي الأخيرة تقترب، ربما خطواتها تثاقلت خجلا منه لكنه لم يتوقف عن تدوين ما يجول في سريرته وإظهار ما يخالجه إلى العلن، متغنيا دوما ببلده رغم أوجاع التفكير وألم ما لم يتحقق أمامه من حلم وحدوي يجمع دول المغرب الكبير.

بعد نصف ساعة من ذلك الحوار الذي شمل ذكريات جميلة وأخرى صعبة. كان فؤاد مفدي يشتاق لأيام النضال تلك. لكن سؤالا استوقفه. فرد موضحا.... اسمع يا بني بلقاسم لطالما أفتخر بجزائريتي وإن كنت بعيدا عن أرضها في هذه الفترة فهي معي في خاطري. لقد ولدت مرتين، المرة الثانية كانت بميلاد روح القومية والكفاح في وطني وزدت درايةً بالوطن في سجون الاستعمار. أما عن سؤالك عن حلم الوحدة... إن فكري يرى في وحدة المغرب الكبير عنصر قوة لا ضعف، البعض عارض، وهذا في صلب الحرية التي أؤمن بها والتي هي نمط امشي به في كل تفاصيل حياتي وما دامت الحرية قوام تفكيري وتعبيري تصبح كلمة

الإلزام والالتزام كلاما فارغا بدون مدلول ولا تعدو في نظري أن تكون من الشعارات المستوردة... الحرية أسمى ما في الوجود دون أن تؤذي من حولك. الحرية الصحيحة في صلب البناء الجامع أيضا وإن تنوعت الفروع لكن يبقى الأصل ثابت. هكذا أردت أن يكون المغرب الكبير فُسَيفساء متنوعة لأصل متجذر يواجه التحديات بقلب واحد لا فردي.

شكرا على التوضيح.. بالعودة لدروب الشعر.. نظمت إلياذة من مائة بيت والصراحة أرى فيها جهدا فكريا جبار أخبرني تفاصيلها ومن أين غرفت كل هذا الإبداع الذي يتحدث عن تاريخ الجزائر؟

بالمناسبة كنت حدثتك عن مهرجان الشعر العربي في دمشق أيضا فزت للحبيبة الجزائر بالجائزة الأولى عام 1961 وفي مهرجان الإسكندرية أيضا، اكرر وأقول السحر في الجزائر ...حبي لها هو مصدر الإلهام عندي، أما عن الإلياذة فالطلب كان من الصديق والعزيز رجل التعريب السيد الوزير مولود قاسم طلب مني أن اكتب قصيدة وتكون إلياذة كإلياذة هوميروس [1] الشهيرة من مائة بيت وبيت عن أمجاد الجزائر وتاريخها منذ ثلاثة مئة سنة قبل السيد المسيح.

أما عن تفاصيلها فلم أستغرق في نظمها أكثر من عشرين يوما ابتداء من أوائل جويلية 1972 وكنت لا أصرف في نظمها أكثر من ثلاث ساعات كل ليلة ابتداء من منتصف الليل. هي من واقعي الخالص الذي أعيش فيه بكل جوارحي وقد مر شريط الجزائر كاملا أمام عيني.

انجاز مهم.. عَودتنا دائما على سُمو ورِفعة أشعارك... سؤال آخر، إقامتك في تونس كانت طويلة وعبر مراحل مختلفة وإلى حد الآن، ماذا أعطت وأضافت لك هذه البلاد؟

(1) إلياذة هوميروس: ملحمة شعرية تحكي قصة حرب طروادة وتعتبر مع الأوديسا أهم ملحمة شعرية إغريقية للشاعر الأعمى هوميروس، تاريخ الملحمة يعود إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد.

شكرا هذا من لطفك... أقول يا شعب تونس..

كم لتونس في الفدى صفحات مجد... حطها الأمجاد

واصعد وخض يا شعب معركة البنا... فالعز من عرق الجبين يشاد.

تونس بلدي الثاني و قطعة من المغرب الكبير و هنا إخواني النبلاء أيضا ناضلت في حزب عريق معهم، وجدته بلد يتمتع بالاستقرار و الطمأنينة و انسجام القمة بالقاعدة وجدت أيضا كرامتي الموفورة و تقدير لموهبتي... لغتنا واحدة و تكويننا الذهني واحد و التجاوب الروحي بين الجزائر و تونس متبادل و عميق جدا، أعطتني الكثير و الحمد الله، يكن لي الناس في كافة الأقطار التي تعرفني كل الاحترام و مواقفي المشرفة بعد الاستقلال تعرفها الجزائر التي أعبدها وتعيش في أعماقي ويعرفها الأشقاء بالمغرب العربي الكبير الذي عشت في جوارهم ردحا من الزمن وأقمت بينهم سفير شعب إلى شعب بدون أوراق اعتماد وعند طبع دواويني الخبر اليقين..

جميل.. عن الشعر مرة أخرى هل اكتفيت؟ أم أن الشاعر يبقى يتعلم، أخبرنا عن حكاية الشعر معك؟

سؤال مهم، كنت قد قلت للشعر يوما...

أنت ألهمتني وما زلت طفلا أيها الشعر آية التوحيد
و تغنيت منذ فجر شبابي بالتحام القوى و دعم الجهود.

إلى آخر الأبيات، أنا لست ممن يفتش عن الشعر.. بل الشعر هو الذي يفتش عني ولا أحاول عصر الأحداث بل الأحداث هي التي تجتلبني ولا أقول إلا ما أعتقد ويوجد بأعماقي وفاءا لصدق التعبير وقد يستعصي على الطالع أحيانا فأعالجه ببعض العناء فإذا ما انتصرت عليه اعتقدت أن القصيد انتهى فعلا ولا أسمح لشعري أن ينطلق لآفاق المجتمع حتى يطربني ويهز كياني وتتواجد معه أعماقي.

أستاذنا مفدي، صادفت العديد من الأحداث وتعرضت للاعتقال والعذاب لسنوات وأيضا تنقلت من مكان إلى آخر، ما أبرز الأحداث التي كانت محطة هامة في حياتك وتركت انطباعا لازال في ذاكرتك؟

صدقا، كل مرحلة عمرية وكل لحظة أعيشها لها من الأهمية الكثير.. لم نخلق عبثا وكنت أرى أن من شكر نعم الله تعالى أن نكون على الأرض ايجابيين في حق أنفسنا وأهالنا وتعاملنا مع الناس كل بما يستطيع فالمحبة والصدق في كل شيء هي أساس إنسانيتنا. لكن من المحطات مثلما أسميتها أساسية أرى أن لحظة الاستقلال شعور لا مثيل له. بعد أن حمدت الله أن وهبني عمرا لمعايشة لحظته كنت ارقص طربا بداخلي وفرحا وفخرا أن دم الشهداء وصمود المجاهدين والمجاهدات الأحياء أعطى درسا في النضال في العالم بأسره واسترجعت السيادة بالسواعد وهنالك أحداث كثيرا أيضا شهر نوفمبر صنع المجد كله كان شيئا إلهيا، زرعنا ثورة بيد كل الأطياف الفكرية وعبر تاريخ نضالي تجاوز القرن من الزمن فحصدنا نصرا خالدا ومشرفا...واعتقد ما قلت عن هذا الشهر العظيم أصدق الأنباء ووصف بشكل دقيق..

تأذن ربك ليلة قدر ... وألقى الستار على ألف شهر
وقال له الشعب أمرك رب ... وقال الرب ..أمرك أمري
ولعلع صوت الرصاص يدوي ... فعاف اليراع خرافة حبر
وتأبى المدافع صوغ الكلام ... إذا لم يكن من شواظ وجمر
وتأبى القنابل طبع الحروف ... إذا لم تكن من سبائك حمر
وتأبى الصفائح نشر الصحائف ... ما لم تكن بالقرارات تسري
وتأبى الحديد استماع الحديث ... إذا لم يكن من روائع شعري
نوفمبر غيرت مجرى الحياة ... وكنت نوفمبر مطلع فجر
وذكرتنا في الجزائر بدرا ... فقمنا نضاهي صحابة بدر

هذه واحدة من أروع المنحوتات الشعرية وأيضا هنالك العديد من الدواوين وكلها أعمال رائعة بشهادة المختصين والقراء في الوطن العربي على غرار اللهب المقدس وتحت ظلال الزيتون ومن وحي الأطلس واليأذة الجزائر وأيضا كتابة الأغاني الوطنية عن الشباب والشهيد ونشيد الطلبة والأعمال المسرحية.. ربما سؤال يتبادر ببال الكثيرين متى ستعود إلى الجزائر؟

مرة أخرى يا بني بلقاسم... ما فارقت الجزائر لحظة واحدة حتى تسألني متى سأعود. هي معي في كل حين والدليل كتاباتي وقد أجبت فيما ذكرت ولأن طبعي صريح ولا أخاف في الحق تهديدا ولا وعيدا، فقد ابتعدت جغرافيا وهذا صحيح ولكن في بلد شقيق وقريب لاعتبارات مختلفة فلقد كان الجو خانقا هنالك

يراقب تحركاتي ويثير شبهات أنا في غنى عنها وربما تعلم ما حدث منذ سنوات عندما أقيمت مسابقة لتغير النشيد الوطني وشاركت دون معرفة الكثيرين وقُبلت أبياتي وأسميتها نشيد الخلود وحملت رقم سبعة وكانت وفق ما طُلب من معايير جديدة بعد الاستقلال.

ولما شاركت؟

شاركت تلبية لنداء الواجب ولأقول أيضا أتركوه.. أتركوا النشيد الأول فقد عمده الدم بنصر كبير..وفعلا تركوه حيا يُسمع مطلع كل صباح في كل أرجاء الجزائر الحبيبة، أريد أن أشير وأشيد، ما أضيف للحن المعتمد والمسجل في القاهرة تحت قيادة الفنان الكبير محمد فوزي قد أعجبني كثيرا. أعجبني ذلك الحس الفني الرقيق للفنان الجزائري هارون الرشيد فالمقدمة التمهيدية أعطت مدخلا مميزا بضربات إيقاعية تسهيلا لبدء النشيد.

المهم الحمد لله، أعيش بكدّ يميني وعرق جبيني وكرامتي المصونة بين قوم أحبّهم ويحبّوني ويقدّرون رصانتي وتعقلي ونزاهتي ويكبرون جهادي ومواهبي وتبقى الجزائر كل حياتي..." مذ عرفت الجمال آمنت بالله... ثم آمنت بعده بالجزائر... وحبها ملئ الجمال جلالا... طأطأت دونه رؤوس الجبابر" وأقول فيها أيضا... الحب أرقني واليأس أضناني والبين ضاعف آلامي وأحزاني والروح في حب "ليلاي" استحال إلى دمع فأمطره شعري ووجداني، أساهر النجم والأكوان هامدة تصغي أنيني بأشواق وتحنان، كأنما وغراب الليل منحدر روحي وقلبي بجنبيه جناحان ...

ولقد ناجيت يا بني رب العالمين يوم حجي مؤخرا أن يحفظها ويصونها فهي مني وأنا منها... أما عن تونس..

لا تلمني إن أنا ملت بها عن سواها ما عسى أن أصنعا
تونسي للفكر،..حسبي شوقا إن فرعي في حماها أينعا

لتونس الفضل الكبير جدا أيضا ولكن تبقى بلدي الجزائر الحب كله... ياه، نكتفي بهذا القدر من الحوار وأنا لك من الشاكرين.

الشكر لك على سعة صدرك وكرم استقبالك وإتاحة الفرصة لهذا الحديث الممتع أرجو ألا أكون قد أتعبتك بالحديث.

بالعكس، سعدت كثيرا... أنت محاور جيد تمنيات لك بالتوفيق ولا تغادر.. إن الكرم قوت يومنا.. غذاؤنا اليوم سيكون سويا.

امتزجت لوعة الشوق وحزن البعد داخل مفدي لبلدا لم يعشق سواها لكنه بدا قويا أمام من حوله. مرهفا في صوغ أبيات هواها. فالعاشق المتيم لا يلام في حنايا الحب الصادق وطريقة حبه هو أن تميل بكلك إلى المحبوب فكان كذلك، لعل عبء ما في القلب كان ثقيلا على فؤاده ومتعبا لعقله. جعل الأيام تتسارع للعودة إلى تراب وطنه، لكن ... مستقرا تحت ثراها...

نهاية البداية..

على أطراف مدينة الجزائر العاصمة 1977.

لا يزال الشيخ حمودة يروي لحفيده سيرة شاعر الثورة... فلقد استرجع كل الأحداث التي عاشها وعايشها معه وسمعها عنه. اقتربت المسافة نحو العاصمة. نظر إلى حفيده مُنتصر وكان قد أغمض عينيه.

يا ولدي مُنتصر.. هل نمت؟ لقد حل الظلام منذ وقت طويل.. ها قد وصلنا إلى العاصمة، يا مُنتصر.. أتسمعني، طوال الطريق كنت أتحدث إليك وأخبرك عن حياة الفقيد مفدي رحمه الله.

اجل كنت أسمعك وسمعت أيضا دعاءك لي ولأرواح من ماتوا وأنت تُفطر.. لم أنم، فقط كنت أفكر هل من ممكن أن كون يوما ما مثل الشيخ مفدي يا جدي؟

جميل.. كيف خطر لك هذا السؤال.. على كل حال من المفرح أن تفكر هكذا ويسعدني ذلك والجواب نعم لما لا ولكن لا يمكن أن يكون أي إنسان مثل الأخر بالمطلق لان الظروف تختلف ولكن يمكن أن نقتدي بالخصال الحميدة والتي نجدها في الأشخاص الخيرين من حولنا خاصة إذا كان هذا الشخص قد لا يتكرر مثل شاعر ثورتنا المباركة. يا بني إن مفدي لم يكن ملك نفسه سخر روحه وعقله وفكره وحياته كلها لهذه الأرض ورآها واسعة الأرجاء لا حدود لها وترك أثرا طيبا فعاد هو في حد ذاته كالوطن نعتز به في وجداننا وستعرف قيمته أكثر بعد رحيله والدليل أننا نتحدث عنه الآن وستتحدث عنه الأجيال اللاحقة وأبدا لا يُنسى.

جزائر يا مطلع المعجـزات و يا حجة الله في الكائنات

و يا بسمة الرب في أرضـه و يا وجهه الضاحك القسمات

و يا لوحة في سجل الخلـود تموج بها الصور الحالمات

و يا قصة بث فيها الوجـود معاني السمو بروع الحياة

و يا صفحة خط فيها البقـآ بنار و نور جهاد الأبـاة

و يا للبطولات تغزو الدنـا و تلهمها القيم الخالـدات

و أسطورة رددتها القـرون فهاجت بأعماقنا الذكريات

و يا تربة تاه فيها الجـلال فتاهت بها القمم الشامخات

شغلنا الورى و ملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصّـلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر...

النهاية

محتويات الكتاب

مقدمة المؤلف 1

القسم الأول 3

مدخل 3
مدينة غرداية / جنوب الجزائر 1908 6
تونس ...بداية الطريق 15

القسم الثاني 21

السيرة النضالية..... 21
حرية على أطراف الوطن..... 37
ربيع 1954..... 49
العودة إلى السجون 76
حرية على أطراف الوطن..... 94

القسم الأخير..... 104

أخر المطاف..... 104
نهاية البداية.. 110

أسميتها ..... قوافي النصر

الرواية تحمل أحداثا تارخية حقيقية مشوقة بحبكة

حوارية متكاملة لحياة شاعر الثورة الجزائرية

مغدي زكريا

بروح الدراما التاريخية الورقية ،تجعل كل قارئ يسافر

مع مشهدياتها و أحداثها المتسلسلة.....!

منشورات الأمراء

نهج بغدادي الرحموني قسم 215 قطرع رقم 4
ولاية سطيف /الجزائر

(213) 36451554 / (213)656077078

aloumara6@gmail.com

www.facebook.com/aloumara6.wsetif

9 789931 750017